الباب السادس

أبرز الأذواق الصوفية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المحبة

تمهيد

المحبة من أرق المذاقات الصوفية وأسمى العواطف الإنسانية والروحية، وأزكى العلاقات القلبية، وهي قوة تدفع الإنسان إلى البذل وتستحث النفس على التضحية والتخلي عن كل مملوك من مال وجاه، وعن كل ما يضن به الناس ابتغاء وجه المحبوب

كما أنها تركز في المتصف بها قوة هائلة من الشجاعة النادرة والإيثار المقطوع النظير، و الرأفة العارمة، ومعاملة المحبوب معاملة أروع وأروع ما تكون.

وبها تشفى الأمراض ويبرأ المحب من العلل النفسية والشهوانية والدنيوية وتكتسح أمامها كثيرا من العقبات، وتبدد كثيف الحجب وتحيل العبد إلى نسيج شعوري عاطفي، وبقوتها ينجذب المحب نحو المحبوب، وتحمله إلى بلاد لا يصل إليها إلا بشق الأنفس، وتوصله إلى منازل لم يكن بدون المحبة ليصل إليها، وتبوئه من مقاعد الصدق مقامات لم يكن -لولاها- يدخلها، فيها يصفو ويتجرد ويفنى وينغمر في عالم الوصال

ومن أجل كل هذا صارت المحبة مقصدا لكل سالك ومطلبا لكل طائر، يروها قمة البناء السلوكي وثمرة الفضل الإلهي، ولشدة تعلق القوم بها أضحت سمة الطائفة وعنوان الطريقة ومعقد الصلة بين الله وبين العبد.

دقتها عن التعريف

تعتبر لفظة المحبة من الألفاظ التي يعجز العلماء عن وضع حد لها، فنجد اللغويين مثلا وهم الذين يرجعون الشيء إلى أصله مباشرة ووضعا يختلفون في أصل الكلمة ومعناها فيقولون: إنها إما اسم لصفاء المودة لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، وإما من الحباب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد أي البعاليل

فعلى هذا تكون المحبة غليان القلب وثورانه عند العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: من الحباب الذي هو معظم الماء ومنه قوله: يشق حباب الماء حيزومها بها، أو حباب الطل كقوله:

تخال الحباب المرتقى فوق نورها إلى سوق أعلاها جمانا مبذرا

فسمى بذلك لأن المحبة غاية معظم ما في القلوب من المهمات، وقيل: من أحب البعير إذا برك فلم يثر فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه، أو من أحب الزرع إذا صار ذا حب وكذلك المحب امتلأ محبة[1]، وهذا يعني أن تلك الكلمة ليس لها أصل لغوي واحد من ناحية الوضع وأنها لدقتها وتنوع أثرها لم تعرف تعريفا محددا ولم تعرف بالجنس والفصل وإنما عرفت باللوازم والرسوم، وامتازت تلك الآثار بالصفاء والرقة والاستيلاء على القلب مع اللزوم والثبات أو الهيجان والثورة والاحترام والتحمل والبذل وخلو القلب من غيرها.

وبجانب هذا فالكلمة من حرفين: الحاء من الحلق والباء من الشفة وهما يدلان على شمول الكلمة واستغراقها للباطن والظاهر، والحب بحركة الضم التي

---

(١) سعيد الخوري: أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد ج١: ١٥٤-١٥٥ ومختار الصحاح: ١٧ والرسالة القشيرية ١٥٧.

تعتبر من أشد الحركات وأقواها لتطابق شدة حركة المفهوم وقوته، والحب بالكسر في جانب المحبوب لخفة ذكره على القلب، فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني[1] وتأمل كلمة من حرفين لها هذه السعة من المعاني والخفايا والعمق.

فلا عجب بعد ذلك أن نرى الصوفية يتفقون على أن المحبة خفيت على الفهوم ودقت على الأذهان واستعصت على الحد والتعبير، إما لأنه لا يعبر عن الشيء إلا بما هو أرق منه ضرورة أن التعريف توضيح وبيان فلا بد أن يشف عن المراد ولا شيء أرق من المحبة فلا لفظ يناسبها تعريفا وتعبيرا على الحقيقة، وهو قول سحنون المحب[2] وإما أنها معنى يرد على القلب فيقهره عن الإدراك ويستولي على اللسان فيعجزه عن العبارة وبالتالي فلا توصف بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب من نفس اللفظ وصورته وبذا قال القشيري وانحاز إليه عماد الدين الأموي.

وزاد ابن القيم أن الحد يزيدها خفاء وجفاء فحدها وجودها[3] والإشارة إليها تنحصر في الآثار لا في ذاتها أذ لا يتصور حدها الذاتي خاصة وأنه قد اتصف بها الجناب الإلهي[4] فالذي زاد من تعقيد التعريف كونها صفة للحق، وشمولها لنفس وقلب وروح العبد، ومن ثم فإن التعريف القائل: هي ميل النفس إلى موافق موائم، تعريف عاجز وقاصر عن أن يجمع المحبة بأنواعها: الإلهية والإنسانية والعامة والخاصة والظاهرة والباطنة.

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ج٣: ١٠، ١١.

(٢) طبقات السلمى ٤٦ والطبقات الكبرى للشعراني ج١: ٧٦.

(٣) الرسالة القشيرية ١٥٧ وإحياء علوم الدين ج٤: ٣٠٨، وحياة القلوب هامش قوت القلوب ج٢: ١٦٦ ومدارج السالكين ج٣: ٩.

(٤) الإحياء ج٤: ٣٠٨ والفتوحات ج٢: ٤٢٩.

وفوق ما ذكر فإنه ليس كل ما يدور في نفس الإنسان يستطيع أن يمسك به لحظات ليتأمله ويعبر عنه، وليست الحياة الإنسانية خاصة الباطنية بدرجة واحدة من حيث محالها وثباتها ودوافعها، وأحيانا يعجز الشعور عن ترجمة العواطف إما لسرعتها أو لرقتها أو لعدم تركز الشعور فيها، أو لأن عاطفة ما قد قذف بها في عمق الإنسان من خارج الدوائر المحيطة به، أو لأن حدثا من الأحداث قد انتابه على غير الطريق الكسبي الذي يألفه ويألف التعبير عنه.

وبالتالي فليس من الضروري أنه كلما أحس الإنسان شيئا ما يستطيع التعبير عنه تعبيرا ينم عن الحقيقة والماهية والحد، وفي هذه الحالة يحاول الإنسان أن يكشف عما بداخله بواسطة التعبيرات الدالة على الأثر والرسم، أو بواسطة الإشارات الحسية التي يستجيب فيها البدن لما تحت أديمه.

والمحبة من النوع الذي يحدث في النفس تأثيرا قويا وانقلابا مدويا وتملك فيه الزمام بأسره، وتسيطر على كل مناحي الحياة الباطنية والظاهرية سيطرة يعجز اللسان عن وصفها، ولا يملك المحب إلا أن يستجيب بكل طاقاته ويرضخ ويلبي ما في داخله إلى درجة أن تستعبده تلك الحالة الشعورية وتسخره لمقتضاياها، ونظرا للطافتها أو لتدفقها المستمر واحتدامها في مجرى الشعور، أو لانبعاثها من مجردات ترق عن اللفظ فإن ذائقها قد لا يقدر على وصف ما يجري في جوانيته.

النبع والتدفق

(١) إن من يتروض في آيات القرآن الكريم وبين نبل الكلمات التي انسابت من فم الرسول ﷺ يدرك بوضوح أن الإسلام ليس دين الخوف والرهبة فحسب كما يصوره المستشرقون وإنما هو دين أنذر النفس البشرية وحذرها وخوفها وفي الوقت نفسه فتح لها باب الرجاء والأمل ورقق مشاعرها ودعا وجدانها إلى أعذب أنواع الصلة في المحبة ليفتح قلب المؤمن على علاقة مباشرة بالله

ويهيج فيه كوامن الشجن ولوعة الحب المضني الذي يستولي على كل الكيان الإنساني.

وبين رياض المحبين ينظر المسلم بجميع مداركه ليجد نبي الإسلام هو أول من تنسم عبير هذه الحياة وذاق حلاوتها ونال درجة المحبة والخلة معا، وليستمع مع هذه الرؤية إلى نداء القرآن الكريم وهو يحدثه عن المحبة في ثلاث وثمانين آية من آياته، وليخبره في أثنائها عن تبادل المحبة بين الله والعبد قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] وليبين لنا فيها أنه يحب المؤمنين المتصفين بالصبر والتقوى والتوبة والتطهر والإحسان، كما يطالب العبيد أن يحولوا مشاعرهم نحو حب ما يبقى لا ما يفنى.

وربط النبي ﷺ بين المحبة والإيمان فقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1] فجعل وجود حلاوة الإيمان معلقا بمحبة الله ورسوله، وأهل الإيمان الحقيقي لهم من هذا الذوق والوجد الذي بينه الرسول في الحديث، وأقسم النبي أنه «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[2].

وأشار إلى أن محبة العبد لله مرتبطة بإحسانه فقال: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي**» وقال: «**من أحب الله فليحبني**

---

(١) البخاري ج١: وإرشاد الساري ج١: ١١٤، ١١٥ ومسلم (نووي) ج١: ٢١٧.
(٢) البخاري ج١: وإرشاد الساري ج١: ١١٦ ومسلم ج١: ٢١٩.

ومن أحبني فليحب أصحابي ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية أذن الله برفعها وتطهيرها وبارك فيها فهي ميمونة ميمون أهلها فهم في صلاتهم والله في نجح مقاصدهم».

وحديث محبة الله للعبد وأمر الملائكة بمحبته ووضع القبول له في الأرض والعكس بالعكس مشهور وذائع لا يحتاج منا إلى سرد.

(٢) وما كان لمسلك النبي في محبته أو لهذا النبع النظري والدعوة الدافئة والعقيدة من الكتاب والسنة أن تمر دون أن تترك أثرها البالغ في قلوب وعواطف المسلمين منذ أن انفتحت على الإسلام، ولا يتصور والحال هكذا أن تعدم المحبة أنصارا لها من أرباب الأرواح اللطيفة والنفوس الذكية من الصحابة والتابعين ومن تلاهم لا سيما وأنهم قد أقبلوا على الإسلام بكل كيانهم النفسي الداخلي والخارجي، وبكل ما يملكون، وأن حقائق الإسلام قد تدفقت في أغوارهم تطرح الزبد وتبقي أنوار الهداية وشعاعات الفضل والمنة، وهم من ناحية أخرى أقدر الناس على فهم الإسلام وتطبيقه من أي جيل أتى بعد ذلك.

وتفد إلينا أخبارهم من خلال مسالكهم العملية وأقوالهم النظرية تصور لنا أذواقهم ورقائقهم وخلجات نفوسهم ومشاعرهم، والمحبة من بين الأحوال الدينية التي فاح شذاها من أنفاسهم بعبارات فاضت رقة وامتلأت هياما وشوقا وكشفت عن مذاق في الوصل وجدوه واستروحوه، وإن آكد النصوص تدلنا على أن رجال السلف من الصحابة والتابعين قد تحدثوا في المحبة وأدركوا ثمارها الذوقية، وجاءت لطائفهم تحمل إلينا مذاقات الأنس والشوق مع الحب.

(٣) فها هو عمير بن سعد يدعو لعمر بن الخطاب قائلا: اللهم أعن عمر فإني لا

أعلمه إلا شديدا حبه لك[1] أما صاحب الراية علي بن أبي طالب فهو المحب المحبوب الذي قال عنه الرسول للبراء: «**ما ترى في رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**» ووجد عند النبي طيرا فدعا «**اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي**» فجاء علي فأكل معه.

وحدثنا الرسول أن الله أمره بحب أربعة وأخبره أنه يحبهم وهم علي وأبو ذر والمقداد وسلمان، وكان ابن مسعود يناجي ربه: «اللهم حببني إليك وإلى ملائكتك وإلى رسلك وإلى عبادك الصالحين»[2].

وأيضا فقد جاءت المحبة بهذا المعنى العام على لسان ثابت البناني وابن عون وحسان ابن عطية وثور بن يزيد الذين وصفوا شعورهم الجياش وعواطفهم المشحونة بالحب والتي دفعها الشوق إلى أن تحيا القلوب مع المحبوب في نصب وتعب، وكم كان كهمس يدعو الله في لهفة وحرارة: أراك معذبي وأنت قرة عيني يا حبيب قلباه[3] ولقد أخطأ البعض حين تصور أن مالك بن دينار لم يتحدث إلا عن الشوق لأننا نراه يقول: فإن القلب المحب لله يحب النصب لله -عز وجل- كما توسع في استعمال كلمة المحبة عبد الواحد بن زيد وهو الذي اتهم هو للآخر بعدم استعمالها فقال: وعزتك لا أعلم لمحبتك فرجا دون لقائك، وربط بين المحبة والرضا والصبر في كثير من أقواله، وكذلك لم تخل أقوال سفيان الثوري من عبارات الحب والمودة[4] هذا كله عدا ما سقناه في القسم الأول أثناء دراستنا لمدارس الزهاد.

---

(١) أبو نعيم: الحلية ج١: ٢٤٩.
(٢) التاج عن رواية الترمذي ج٣٠: ٣٣-٣٣٦ وحلية الأولياء ج١: ٣٠٨.
(٣) الحلية ج٢: ٢٣٢، ٢٢٣ ج٣: ٣٩ ج٦: ٧٤، ٩٣.
(٤) نفسها ج٢: ٣٦٣ ج٦: ١٥٦، ١٦٣، ١٥٨، ١٥٩.

(٤) وأما أن هؤلاء الرجال من الصحابة والتابعين وتابعيهم قد تطلعوا إلى ثمار المحبة وتحدثوا عنها في صورتها الخاصة ومعانيها الدقيقة فإن هذا يتجلى في حال سالم مولى أبي حذيفة الذي قال عنه الرسول ﷺ «**من أراد أن ينظر إلى رجل يحبه الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم**» وقال: «**إن سالما شديد الحب لله عز وجل لو كان لا يخاف الله ما عصاه**» لأن الحب قد ملك عليه قلبه وغمر كل جوانبه و لم يترك مكانا فيه لغير المحبوب، وحبه ليس من النوع النفعي الذي يخاف فيه المحب من النار أو يطمع به في الجنة بل هو حب ذاتي إن خلا من الخوف والطمع لا يخلو من العبادة لعلم صاحبه ويقينه أن الله مستحق للطاعة بذاته، وبذا يكون سالم قد سبق رابعة العدوية حين نقل علاقته بالله من النفعية إلى استحقاق الكمال الذاتي لله، ومن عبادة القهار الجبار إلى عبادة الرءوف الودود الوهاب.

ولتلك العبادة لذة لا تضارعها لذة أخرى ففيها ينسى المحب في جنب المحبوب كل شيء ويهيم مع الله مستعذبا كل جهد وتعب وسراء وضراء، ثم إن قول أبي بكر -رضي الله عنه-: «من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر» يصلح أساسا قويا للمحبة في شكلها الخاص التي تقترب من الفناء وتجذب صاحبها إلى الله جذبا يقطعه عن الغير والسوى، ولهذا الاعتبار صح قول علي كرم الله وجهه عن أبي بكر رضي الله عنه «إنه أمين الشاكرين وأمين أحباء الله»[1].

(٥) ولا شك أن الصحابة قد وضعوا لمن جاء بعدهم الأساس النظري والعملي لنظرية المحبة ولذا نرى إبراهيم بن أدهم يقتفي أثر سالم في فكرة الحب بلا

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤: ٥٤، شرح عين العلم ج٢: ٢٥٦ وتفسير الطبري ج٧ : ٢٥٢ والحلية ج١٧٧١ والبيان والتبيين ج٣: ٨٨.

عـــوض ويقول: إلهي إذا أنت آنستني بذكرك ورزقتني حبك وسهلت علي طاعـــتك فـــأعط الجنة لمن شئت، ويدعو: اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة فما دونها إذا أنت وهبت لي حبك وآنستني بمذاكرتك وفرغتني للتفكير في عظمتك[1].

(٦) ومن ناحية أخرى فقد تبنى بعض الزهاد من التابعين وتابعيهم أفكار أبي بكر الصـــديق فصـــرح الحسن البصري وهرم بن حيان أولا أن المحبة ثمرة المعرفة العامـــة، ثم عادا وانضم إليها ابن أدهم والفضيل بن عياض فأكدوا أن العبد بعد أن يعرف اللـــه بالكسب والنظر ثم يحبه محبة الإحسان يفتح اللـــه عليه بالحـــب حـــتى يقبل عليه فينظر بنور اللـــه ويكاشف بإلهامه ويخاطبه على المشاهدة والحضور ويستوي لدى المحب في هذه الحالة المنع والعطاء[2].

وبـــذا يكون السلف من الصحابة ومن تلاهم قد حدثونا عن المحبة العامة بما يلـــزم لها من جهد وتعب واتباع، وعن المحبة الخاصة وما يسبقها من معرفة عامة ومـــا يـــلحقها من معرفة كشفية ومن شهود وفناء، وعن طبيعة وخصائص تلك المحبة في دورها الراقي وأنها محبة ذاتية لا تتجه إلى النفع الحسي.

(٧) وأحـــب أن أسجل هنا كذلك أن هذا الجو قد حلق فيه الراحلون إلى اللـــه بأجـــنحة الشوق والأنس مع أجنحة المحبة حيث صرح النبي ﷺ أولا: بقوله: «**والشوق مركبي**» وقال: «**وا شوقاه وا شوقاه**» وقال: «**ذكر اللـــه أنيس**» ومن نقلـــه اللـــه -عز وجل- من ذل المعاصي إلى عز التقوى أغناه بلا مال

---

(١) الحلية جـ٨: ٣٥، ٣٦.

(٢) إحـــياء علوم الدين جـ٤: ٢٥٤ والطبقات الكبرى للشعراني جـ١: ٢٦: والحلية جـ٨: ٣٦، ٢٥، ٩٩-١٠٠.

وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا أنيس، وكذلك استعمل قتادة وعبيدة بن مهاجر وشميط بن عجلان ورباح بن عمرو القيس ودواد الطائي ومحمد بن السماك وابن أدهم ومحمد بن المبارك ألفاظ الحب مع الشوق والأنس في مزيج عاطفي وشعور ذوقي فاضت به أقوالهم وعباراتهم مما يدل على أنه لم تتفرد كلمة دون الأخرى في هذا العصر[1].

كما أود أن القول: إنني لم أتتبع هذا المنبع لحال المحبة و لم أسر معه في مجراه السلفي العذب إلا لأبين عدة حقائق هامة أسوقها مفصلا على الوجه التالي:

أولا: خصائص الحال عند السلف

رأينا كيف تحدث القرآن والحديث والصحابة ومن بعدهم عن محبة الله للعبيد، واتجهت أنظار السلفيين الأوائل إلى اعتبار المحبة في هذا الدور صفة خبرية، وأثبتوها لله بلا تأويل أو تشبيه وتوقفوا عن القول بأنها عين الإرادة أو الرضا أو الكلام كما يقول المؤولون، وعن القول بأنها تدل على الميل والاستئناس مثلما يذهب المشبهة، واكتفوا بتصحيح قيامها بذاته سبحانه فقط، وقالوا: إنها صفة ينعت بها الحق ويتصف بها العبد بلا مناسبة ولا مشابهة ولا مشاكلة، والعبد حينما يتحقق بها يتجه أولا إلى الله سبحانه ثم إلى رسول الله ﷺ ثم إلى المسلمين ثم إلى الموجودات التي أبدعها الله وأحلها.

فالإسلام من هذا الجانب العاطفي الرقيق هو دين الحب والأمل والرجاء الفسيح وليس دين الخوف فحسب كما يتصور البعض قاصرا نظره على آيات العقاب والنذير وأهوال القيامة وغاضا بصره عن آيات الجود والكرم والمن

---

(١) الحلية ج٣: ١٩١، ج٢: ٣٣٩ ج٥: ١٦١ ج٦: ١٩٥ ج٧:٣٤٦ ج٨: ٣٥، ٣٧-٧٠، ٢٠٧ ج٩: ٢٩٨، ٢٩٩.

والفضل والنعمة والرحمة والمودة والحب.

وبجانب هذا فقد وضح أمامنا أن الحب عند هؤلاء الرجال كان عاطفة دينية خالصة وحالا شعوريا صادقا نشأ من مذاقات الإيمان وحقائق اليقين و المعرفة الحقيقية بنعم الله الحسية والمعنوية بما يستحقه من حب لكماله وجماله في ذاته، وعندما تحدثوا عن هذا الحال ألمعوا إلى بعض أقسامه وما ينشأ عنه من مذاقات أخرى، وجاءت عباراتهم عن الحب في صورتيه العامة والخاصة تنم عن رقة في المشاعر وتسام في الوجدان وتتسم الألفاظ باللين والجمال والحسن مع خلوها عن الحسية الموحشة والشطح المحير، وتكشف عما ذاقه المحبون من الأسرار والحضور والمشاهدة.

ثانيا: إبطال ما زعمه ماسنيون

بعد كل ما سبق تعالوا نستمع إلى ماسنيون في دعواه التي يذهب فيها إلى أن رابعة هي التي تركت في الإسلام شذا من ولايتها لا يزال أريجا، وأنها أول من استعمل في غير تهيب كلمة الحب في العشق الإلهي معتمدة على ما جاء في القرآن، وكان من قبلها يتحرجون من كلمة الحب في ذلك المقام، ويلوح له أن لفظة المحبة بدت غريبة حينما استعملت لأول مرة على يد رابعة العدوية محتجا بأن مالك بن دينار كان يستعمل لفظة الشوق وكذلك كان عبد الواحد بن زيد يؤثر تلك اللفظة.

وقد تابعه على ذلك فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق فقال: وعندما كان التصوف في سذاجته على عهد رابعة لم يكن الحديث في أمر المحبة الصوفية طريقا معبرا، وقد تكون رابعة العدوية أول من هتف في رياض الصوفية بنغمات الحب

شـــعرا ونثرا[1]، وتلقف الدكتور عبد الرحمن بدوي هذه الدعوى وتلكم المتابعة فقال كذلك: إننا نذهب إلى أن أحدا لم يتكلم في الحب أو المحبة قبل رابعة وأنها هـــي أول من أدخل هذا المعنى في التصوف الإسلامي بالمعنى الحقيقي للحب لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيرا ظاهريا[2].

وأمـــا الدكـــتور محمد مصطفى حلمي فإنه بعد أن قرر أن الحياة قبل رابعة كانـــت خاضعة لسلطان الحزن والبكاء الناشئين عن ألم المعصية وعن الخوف مما يترتب عليها، وأن تلك الحياة الروحية لم تستعمل فيها لفظة المحبة استعمالا صريحا أعلـــن بعد ذلك قائلا: وأغلب الظن أن أول من أخرج التصوف عن تأثره بعامل الخوف وأخضعه لعامل الحب هو هذه الزاهدة العابدة العاشقة رابعة العدوية[3].

فقـــد اعتمد هؤلاء الباحثون على عبارات ماسنيون ودعواه ورددوها كما هـــي ويقيني أن ماسنيون قد وقع في خطئه هذا نتيجة عدم التفرقة بين معنى لفظة العشـــق وبين معنى لفظة الحب، ويـــبدو أنه ترجم كلمة الحب الواردة في القرآن بكـــلمة العشق وجعلها أصلا، ثم لما لم ير كثرة استعمال هذه اللفظة التي لم ترد نصا في القرآن قبل رابعة قضى بأنها أول من استعملتها، فكأنه يريد أن يقول: إن رابعة أول من استعملت لفظة العشق، وهذا لا يلغي سبقها باستعمال الحب.

وطـــبقا لهذا فيكون تصحيح عبارة ماسينون السابقة على الوجه الآتي: وقد اســـتعملت في غير تهيب لفظة العشق في الحب الإلهي، وهذا هو المقصود الحقيقي

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج٩: ٣٥٧، ٣٦٠ نقلا عن كتاب ماسنيون أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى ١٧٤ط باريس.

(٢) د/بدوي: شهيدة العشق الإلهى: ٦١، ٥٩.

(٣) د/حلمي: الحياة الروحية في الإسلام ٧٢، ابن الفارض والحب الإلهي ١٤٠-١٤٢.

لـــه مـــن وراء عبارته نظرا لاعترافه بأن رابعة اعتمدت على القرآن في حالها والمذكـــور في القرآن هو الحب لا العشق ، والتحرج الذي ذكره ما سنيون إنما كان من كلمة العشق لا الحب لورود الأخيرة كثيرا في الكتاب والسنة، وإذا كان كذلك فلا حرج ولا ضير في استخدامها وهو ما تم فعلا.

وبالـــتالي فـــإن كانـــت تلك العبارة هي الواردة أصلا في كتاب ماسنيون «أصول المصطلح الفني للتصوف الإسلامي» وفي الأصل الفرنسي الذي نقلت عنه فإن الخطأ يكمن كما قلنا في عدم التفرقة بين اللفظتين الأمر الذي جعلـــه يصرح بـــأن رابعة أول من استعمل الحب مع أنها أول من استخدم العشق، و لم ينتبه لهذا الخطأ كل من تابعه أو وافقه من الباحثين.

وإن لم تكن العبارة واردة أصلا في المرجع المذكور فيكون الخطأ قد وقع من المترجم ثم من الناقلين، وعموما فعلينا ألا نأخذ الكلام من المستشرقين على عاهنه ألا نســـلم به دون أن نعركه وأن نغوص بين دفات مراجعنا ومصادرنا نستفتيها ونحتكم إليها كما نسأل سلوك رجالنا وعلمائنا ونقتدي بهم ونجعل أحكامنا مبنية على هذا في الدرجة الأولى.

وعـــلى فرض صحة التسليم بفهم ماسنيون للفظتين وأنه قصد ما كتبه حقا وصـــحت الترجمة وتطابقت مع الأصل فإن الباحث يصير في نظرنا متناقضا مع نفسه لأنه قرر أنها اعتمدت في حبها على القرآن، وهذا بالطبع يقتضي أنها ركنت إلـــيه أولا مـــن ناحـــية المعنى والحكم كداع إلى حال المحبة ثم من ناحية اللفظ كمســـتخدم لهـــا بـــين ألفاظه وآياته، وإذا كان كذلك فلا يصح أن يقول: إن اســـتعمال الكـــلمة على يد رابعة بدا غريـــبا إذ من أين تأتي الغرابة والمسلمون يرددونها أينما وكلما رتلوا كتابهم؟

هـــذا مـــن ناحية ومن ناحية أخرى فإن احتجاجه بأن عبد الواحد بن زيد اســـتعمل لفظة العشق وغفل عن لفظة الحب لم يقدم عليه دليلا و لم يبين من أين استقاه؛ مما يجعلنا نقول: إن ما نسب إلى عبد الواحد لا يمكن أن يكون صحيحا، وعـــلاوة على هذا فإننا رأينا من عرضنا السابق أثناء الحديث عن التدفق أن ابن زيد ومالك بن دينار استعملا لفظة الحب والمحبة.

ومـــن ناحية ثالثة فإن ما قدمناه وما جاء على لسان الصحابة والتابعين يبين انتشـــار ألفـــاظ الحـــب والأنس والشوق قبل رابعة ويضع أيدينا على المشاعر والقلـــوب الـــتي ذاقت هذا الحال حقيقة لا مظهرا كما يزعم الدكتور بدوي، ويضـــيء لنا السبيل إلى أنوار المحبة التي تفجرت من صدور السابقين على رابعة، والتي بدلت حرارة الخوف ولوعة الحزن إلى بوارق الأمل، والتي سرت في وديان القلـــوب فـــروت ظمأها وأطفأت لهيبها حتى لدى من وصف بأن الخوف سعر نفســـه وانتشـــر لظاه من حولـــه وهو الحسن البصري مما يقطع بعدم صحة ما ذهب إليه الدكتور محمد مصطفى حلمي في وصف الحياة الروحية قبل رابعة،

وهـــذا الذي نذهب إليه هو ما يتفق مع دعوة الإسلام التي نوعت الحديث أمـــام الـــنفوس فذكرت النار الحامية والطعام من غسلين والشراب الحميم الذي يقطع الأمعاء ويفتت الأكباد ويفري الجلود مع آيات الرجاء والعطاء والمن والنظر إلى نـــور الحـــق والجنة وما فيها لتنصلح الطباع وتهتدي القلوب ويرعوي العباد ويـــنـــزجروا بمـــا يصلحهم من وعيد أو يتقبلوا أو يتطلعوا إلى ما يسعدهم وما يبـــتغونه من رضوان وأسرار وجنان كما يتفق مذهبنا مع الواقع الذي صار عليه الصحابة والتابعون ممن ذكرنا حالهم في الحب والود والشوق.

ثالثا: رد دعوى نيكلسون

ودعونا الآن نقف وقفة سريعة مع نيكلسون الذي زيف الحقائق وحاول أن يطفئ النور بقوله إن المسيحية هي الرافد الأصيل للحب الصوفي[1] وجاراه على ذلك الدكتور قاسم غني فقال: إن الديانة المسيحية قد استحالت إلى مذهب صوفي في المحبة بعد امتزاجها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة[2] ولا شك أنها دعوى رخيصة تلك التي تزعم هذا الزعم لكونها تتجاهل كل ما قلناه من انتشار المحبة بين الصحابة والتابعين ووجودها أصلا بين دفتي المصحف وفي أقوال الرسول وارتباطها بالإيمان وحلاوته، ولأنها مردودة بشهادة نيكلسون نفسه حيث اعترف أن لحب الصوفي وجد منابعه في القرآن الكريم وبشهادة فيليب حتى من قوله: لقد أصبح الحب الديني أعظم الوسائل عند الصوفية. وفي القرآن آيات تؤكد جانبه.

ويتفق على هذه الحقيقة كل من الدكتور إبراهيم بسيوني والدكتور محمد كمال جعفر الذي أثبت أن «هورثمان لال» الصوفي المسيحي والشاعر المحب هو الذي تأثر بصوفية المسلمين تأثرا بالغا عندما كان يتغنى بأشعاره معبرا عن الحب مع الابتلاء والوجد والفقد والفناء مثلما عبر صوفية المسلمين[3]، وقد كان كتابه القيم «المحب والمحبوب» روضة القراء في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي، ولعل الدكتور قاسم غني كان يعني بعبارته السابقة أرباب المزج ممن خلطوا بين التصوف والفلسفة لا جميع الصوفية كما هو واضح من عبارته السابقة.

---

(١) نيكلسون: الصوفية في الإسلام ١٠٨-٨٠٩.

(٢) د/غني تاريخ التصوف في الإسلام ٤٦٥.

(٣) د/جعفر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ٨٠ و د/بسيوني نشأة التصوف الإسلامي: ١٧٣، د/حتى: الإسلام منهج حياة ١٣٣.

رابعا: وجهة نظر المؤولين لمحبة الله للعبيد وموقف الصوفية منهم

وبعد أن قلنا: إن السلف قبلوا صفة الحب وأقروا بها بلا تأويل ولا تشبيه وقالوا بتعلقها بذات الله نرى فريقا من المتكلمين كالجعد وتلميذه جهم بن صفوان والزمخشري وأحمد بن غالب المعروف بغلام الخليل ينكرون الحب الإلهي سواء كان صفة لله أو صفة للعبيد متوجهة إليه سبحانه واحتجوا بأن الله لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا ولا يناسبه طباعا فكيف نحبه وإنما يتصور منا أن نحب من هو من جنسنا ومن هو مثلنا[1]، وأما بالنسبة لصفة المحبة التي تتعلق بذات الله فقالوا: إن كل محبة تقتضي ملائمة ومناسبة بين المحب وبين المحبوب ويحدث للمحب بدرك محبوبه فرحا وسرورا ولذة، وكذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بينهما ويحدث للمبغض أذى وبغضا، والملائمة والمنافرة تقتضي الحاجة، والله غني لا تجوز عليه الحاجة وإلا لزم حدوثه وإمكانه وهما محالان على الله سبحانه، وأيضا فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب لله أبدا وأزلا ولا يتصور تجدده ولا زواله[2] ووافق الغزالي هؤلاء فأنكر حب الله وإن سلم حب العبيد وهذا على سبيل القطع بينما تردد ابن عربي فمرة يسلم حب الله ومرة يؤوله يثبت حب العبيد أبدا[3].

وقد اقتضت تلك النظرة أربابها أن يرجعوا الآيات والأخبار التي تحدثت عن المحبة إلى الإرادة أصلا، وقالوا: إن الإرادة لها تعلقات متعددة فإن تعلقت بالتقريب

---

(١) المكي: قوت القلوب ج٢: ٦٤ والأربعين للغزالي ٢٥٣ ومفتاح السعادة ج٢: ٥١٢ وحياة القلوب هامش القوت ج٢ ١٦٧ والفلسفة الصوفية في الإسلام د/محمود ١٤٥ والتصوف طريقا د/جعفر ٦٧-٦٨.

(٢) جاءت هذه الآراء وساقها ابن تيمية في الرسائل والمسائل ج٣٢:٥ والإحياء ج٤: ٢٨١.

(٣) ابن عربي الفتوحات ج٢: ٤٣١.

فمحبة وإن تعلقت بالثواب فرحمة وإن تعلقت بالعقاب فغضب، فهي وجه من وجوه تعلقات الإرادة ويدفع الله به عن العبد الشواغل والكدورات ويطهر باطنه وظاهره ويكشف له الحجاب ويمكنه.

وقيل: إنها ترد إلى صفة الكلام الذاتية، وبناء على هذا الرأي فالمراد بالمحبة مدح الله عبده والثناء عليه لقيامه بحق الربوبية من الطاعة والعبادة[1] ومن الملاحظ أن القشيري أفاض في مسألة تأويل هذه الصفة على لسان العلماء مما يشم معه تأييده لتلك الفكرة كما أيدها النووي والقسطلاني[2] وإذا انتقلنا إلى موقف الصوفية وجدناه كالآتي.

(أ) إنهم نهجوا نهج السلف في التسليم بهذه الصفة وتفويض علمها لله سبحانه واعتقدوا أن الله يحب عبده كما يشاء لما يشاء لأنه أخبر عن محبته له فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، وهي مزيد إيثار من المحب الأول وهو الله لعبده[3]، حسبما بين القشيري والمكي ولأنه تسمى بالودود وفي الخبر بالمحب[4]، وما دام الخبر قد ورد بها فإنه يلزم اعتقادها بالشرع لا بالعقل اعتقادا يجعل القلب موقنا بنسبتها إلى الله ومؤمنا بمعناها وإن دقت على العقل تلك النسبة لكونها

عزيزة التصور[5]، وهذا هو بعينه التفويض السلفي الذي رأيناه سابقا والذي نقرؤه عند البسطامي في قوله: لست أتعجب من حبي لك وأنا عبد فقير، ولكن

(١) الرسالة القشيرية ١٥٦ ومدارج السالكين لابن القيم ج٣: ١٨، ١٩ والإحياء، ج٤: ٢٨١.
(٢) مسلم ج٥: ٤٩٠ وإرشاد الساري للقسطلاني ج٩: ٣٧ ج١٠: ٤٨٧-٤٨٨.
(٣) المكي قوت القلوب ج٢: ٥٣ والرسالة: ١٥٦.
(٤) الفتوحات ج٢: ٤٢٥.
(٥) ابن عربي: الفتوحات ج٢: ٤٤٣.

أتعجب من حبك لي وأنت ملك قدير[1]، والعبارة فيها من الوجازة والدقة ما يغني عن كثير من الأقوال لأنه يثبت فيها محبة العبد لله ويراها قائمة على الحاجة والافتقار والميل، ويعترف بمحبة الله لعبده ثم يتعجب من قيام تلك الصفة بذات الحق على وجه يختلف عما هي عليه في العبد لكون الحق مستغنيا كاملا قادرا غير محتاج ولا مفتقر، ومع تعجبه فإنه يفوض العلم في قيام تلك الصفة بالله إليه سبحانه.

(ب)وبعد ما أيقنوا بتلك الصفة قاموا بالرد على المنكرين والمؤولين، ففرقوا بين صفة المحبة عند العبد وبينها عند الله مبينين أن المحبة التي هي صفة لله سبحانه مقام إلهي أي صفة ثبوتية دائمة لله سبحانه لا تشبه صفة المخلوقين في اعتمادها على أسباب متغيرة ومتولدة متقلبة بل نعت الحق سابق للأسباب عن كلمته الحسنى أو هي صفة قديمة قبل الحادثات عن عنايته العليا، ولا تتغير أبدا ولا تنقلب لأجل، ثم هي مع ذلك خاصية حكم من أحكامه ومزيد من فضل أقسامه وتتمة من سابغ إنعامه خالصة لمخلصين ومؤثرة لمؤثرين ليس لذلك سبب معقول ولا لأجل عمل معمول بل يجري مجرد سر القدر ولطف القادر[2].

ولا تتصف بالبدء ولا بالغاية لأنه سبحانه لا يقبل الحوادث ولا العوارض، ونسبة محبته للعبيد نسبة كينونته معهم أينما كانوا في حال عدمهم وفي حال وجودهم لم يزل ولا يزال لم يتجدد حكم لم يكن عليه[3] وهم بهذه الأقوال يدافعون عن نعت الله بالمحبة بأنه ليس حادثا ولا طارئا ومسببا وليس له

(١) مناقب أبي يزيد ١٢٢.
(٢) المكي: وقوت القلوب ج٢: ٥٣.
(٣) ابن عربي: الفتوحات ج٢: ٤٣٣، ٤٣٤.

دواعـــي من خارج ذات الحق لاستحالة تعلق الحوادث بذاته سبحانه ولأنه غني كـــامل بذاتـــه، وما دام كذلك فإن اتصاف الحق بالمحبة لا يستلزم الحدوث ولا الإمكـــان شـــأنها كشـــأن بقية الصفات القديمة التي تقوم بذاته ولها تعلقات من موجود لموجود ولا تستلزم هذين المحالين لكون اللـــه غنيا واجب الوجود بذاته.

والغنى الذاتي يعني عدم الحاجة إلى الغير لاكتفاء نفسه بنفسه[1] جل جلالـــه، وكذلـــك فليست المشيئة والمحبة شيئا واحدا أو صفة واحدة ولا هما متلازمان بل قـــد يشاء اللـــه ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه، فللـــه إرادة واحدة يفعل بها مـــا يشاء ولـــه حب يمنحه لكل حسن وبغض لكل شيء مذموم كما أشار إلى ذلك ابن القيم وابن رجب[2].

والنتـــيجة بعـــد هذا أن المحبة عند السلف ليست هي الإدارة أو كما يقول المكي: وليس هذا مذهب السلف ولا طريقة العارفين، ويقول القشيري: وليس مـــراد القوم بالمحبة الإرادة[3] وبذا نتأكد أن جمهور الصوفية سلفية في هذا الموقف أيضـــا وأن الصوفية السنيين كالبسطامي والمكي والجيلاني وغيرهم قد التقوا مع السلفية الأولى ومع دعاة السلفية في القرون الوسطى كابن تيمية وابن القيم وابن رجب.

---

(١) ابن تيمية: الرسائل والمسائل ج٥: ٣٣-٣٤.

(٢) ابـــن القيم مدارج السالكين ج٢: ١٩٢، ابن رجب: فضل علم السلف على الخلف ٣٨-٣٩.

(٣) المكي: قوت القلوب ج٢: ٦٤ والرسالة القشيرية: ١٥٦.

خامسا: دوافع محبة العبيد

عندما تحدث السلف عن المحبة وصفوا شعورهم و لم يغوصوا في تحليلات وتفريعات تتصل بهذا الحال أما الصوفية فإنهم تناولوا هذه العاطفة بالتقسيم والتحليل والتعليل مع بيان الدوافع النفسية المثيرة لهذه العاطفة نحو العبيد أو نحو الله سبحانه ومما جعلها نظرية قائمة على أسس وأسباب ولها أسلوب وطريقة وهدف وغاية، أما الأسباب التي دفعت رجال القوم إلى اعتناق الحب كفكرة رئيسية وهامة جدا يلزم التحقق بها للسالك الذي يريد الوصال ويبغي النوال فإنها انشعبت إلى شعبتين:

الشعبة الأولى: ترتبط بالحركة الفكرية العامة والمجتمعات الإسلامية بعد اتساع رقعتها وتعدد أجناسها ولغاتها وطبائعها وميولها، وتتصل بما ظهر في هذه المجتمعات من إقبال على الترف واللهو والعبث بالقيان والغناء والرقص والطرب وما تبع ذلك من قيام النزعة المثالية والخيالية في عالم الأدب والشعر وظهور الحب الحسي بكامل أشكاله، أضف إلى ذلك أن النزعة العقلية بعد انتشار الترجمة قد سادت الأجواء الفكرية وعدت على الحقائق الدينية فحملتها من شحنة الفكر ما أثقلها، وحولتها عن بساطتها وسماحتها وفطريتها، وزجت بالعقول في محيط الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية، وأثارت من المشاكل ما عجز العقل عن أن يقدم لها الحلول القاطعة التي تذهب القلق وتبعث على الطمأنينة، وبعد أن كان الدين قد أقنع المسلم وأرضاه وطمأن النفس وزكاها وهيمن على العاطفة وشحنها بما قدم من حقائق تبرئ العلل وتشفي الأسقام وتهدي الحيارى جاءت العقلانية فنقضت ما كان منسوجا وزعزعت ما كان مستكنا وفرقت ما كان مجموعا.

لهذا كله تيقظت الروح في بيئات أهل الفضل والورع من الصوفية وحزموا إرادتهم وحركوا ضمائرهم وهيموا أرواحهم فوق دنايا الحس والشهوة

وقد تأففوا عن الفتن والمجون واتجهوا نحو الدين في نصه وروحه ومنطقه وعاطفته نائين بأنفسهم عن خضم الفلسفة وميدانها والتعقل وتحيره، وصائحين في المجتمع أن يعود، وأن يفيق وأن يتأمل ميراثه النقي وأن يسلك على درب السلف الصالح، معتقدين أن فكرة الحب الروحي كفيلة بالقضاء على الحب الجنسي لما تقوم به من تحريك المسلم نحو الله والإسلام ونبيه ومن حث على الاتباع والعمل الدائم والدائب لمرضاة المحبوب وهو ما ينزع هواجس السوء في النفس الإنسانية ويصفيها من عوارضها وعوائقها ويلزمها الطريق السوي.

فالحب من هذا الجانب دعوة إلى التمسك بأمر الله وبكل ما يرضيه وبالاقتداء برسول الله، وهو ثورة عاطفية يقصد من ورائها إحداث ثورة اجتماعية للقضاء على الفساد المستشري في المجمع آنذاك، كما أنه محاولة للتخفيف من غطرسة العقل والعودة به إلى نور الوحي بعيدا عن دياجير الفلسفات القائمة على الوثنية أصلا، وذلك بإثارة العاطفة في النفس كي تتغلب على العقل أو ترقرقه ليقبل العودة إلى الحقائق الإسلامية والسير على هديها، وفي الوقت نفسه تفتح له باب المعرفة الأرقى عن طريق البصيرة التي يزيدها الحب صفاء ونقاء فتصبح جديرة بأن تلمح فيها أسرار الحق وأنواره، كأنها تقنع العقل الراغب في المعارف بأنها لا تغلق عليه هذه النافذة إنما تدله على باب أرحب ومجال أفسح من المعارف اليقينية.

فالحب من هنا منهاج يدعو لإصلاح العقل ومنهج لنيل الكشف والمعرفة الذوقية وداع يهدي شتات الفكر إلى لمعات البصيرة، وإذا فقد دفعت المثيرات العاطفية الحسية والجنسية والاختلافات الفكرية قلوب الصوفية إلى الحب، واثقين أنه عاطفة قمينة بأن تعالج ما يجري في المجتمع من فساد نفسي وطغيان عقلي أو فكري خلا من العاطفة الدينية الصادقة، ومتيقنين من أن الحب قدير على تجلية الطريق وحل المشاكل التي استعصت على بيئات التناظر والتحزب.

ولقد نجح القلب المحب إزاء هذا الدور التاريخي في توجيه دفة الفكر الإسلامي والعاطفة نحو هذا الشاطئ الرائع[1] والمتين من الاستمساك بالدين والفضيلة حسبما تدلنا تلك الإحصائية الضخمة التي تأثرت بنداء المخلصين من أبناء الطريق، وكم انتشل القوم برقائق عباراتهم ونظم عواطفهم رجالا من ساحات اللهو وميادين الفجور وحانات العبث ثم صاروا بعد ذلك أبطالا على طريق المجاهدة والمحبة الروحية، وخرجت عباراتهم يملؤها الوجد الروحي والسكر من شراب المحبوب الأقدس بعد أن كانوا يترنحون بالكلمات وبطونهم ملأى من الشراب الحسي الذي حرمه الله سبحانه.

وأما الشعبة الثانية: من الأسباب التي هيجت كوامن الشوق عند الصوفية فإنها ترجع إلى أمور ذاتية لدى السالك، إذ يبين لنا أبو طالب المكي أن المحبة الصادرة من العبد أو المتعلقة به تحدث لأحد سبع معان لطبع أو لجنس أو لنفع أو لوصف أو لهوى أو لرحم ماسة أو لتقرب بذلك إلى الله تعالى[2]" وصنف الغزالي هذه الأسباب السبعة إلى ما يثير الحس ويلتذ به وإلى ما يثير الباطن ويجعله قريرا وما يتعلق بالحس منتشر في الإنسان بحسب كل حاسة من الحواس حيث توجد لذة لكل منها.

ونحن نحب كل شيء يحدث في ظواهرنا لذة وله صلة الملاءمة والموافقة بينه وبيننا، كما نحب بصورة أكثر ما له علاقة ببواطننا لأن القلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للإبصار[3]

---

(١) د/إبراهيم بسيوني: نشأة التصوف الإسلامي ١٧٤.

(٢) المكي قوت القلوب ج٢، ٥٢.

(٣) الغزالي إحياء علوم الدين ج٤: ٢٥٤-٢٥٥-، ٢٥٨-٢٨١ ومفتاح السعادة ج٣: ٥١٣، ١٧٩، ٢٩٢ وعين العلم ج٢: ٣٥٤.

فـــالأمور المســـتلذة باطنيا أتم وأبلغ من الأمور المستلذة ظاهريا وإن كانت اللذة والملائمـــة والموافقـــة أمور مشتركة وأسباب مؤثرة في قيام نـــزعة الحب إلا أن الحب القائم على البواعث الحسية أدنى من القائم على البواعث القلبية والروحية.

وســـواء أكانـــت الأسباب ملائمة للظاهر أم متوافقة مع الباطن فإن الحب خاصـــية ذاتية إنسانية، أم إنه إنساني فلأن المخلوقات الأخرى لا تستشعره ولا تحـــس به وأما إنه ذاتي فلأنه راجع إلى تحقيق الوجود لنا أو تكميلـــه، لا فرق في ذلك بين أن يتجه الحب إلى نفس الإنسان أم إلى الغير.

ولا خـــلاف على ذاتية الحب حينما يحب الإنسان نفسه، كما لا خلاف عـــلى ذلـــك في حال حب الغير إذا علمنا أن هذا الخارج عن نفوسنا إما جميل حســـن في ذاتـــه فـــنحن نحبه لذلك لكون الجمال والحسن من المقطوع بحبهما لذاتهما، ولكن لا ننسى متعة نفوسنا من جمال الأشياء وحسنها وإن لم يصل إلينا شـــيء مما تكون عليه المخلوقات البديعة، فالحب واقع للموجودات الجميلة لذاتها ولمـــا تحققه فينا من راحة واستمتاع، وإن كان حبنا منصرفا إلى الأشياء الخارجة عـــنا لمـــا تعطينا من أمور تبعث وجودنا وتكون سببا فيه أو تزيده وتكملـــه أو تحفظه وتحرسه فنحن بلا بشك نحب ذلك الغير من أجلنا.

وكـــل هـــذه الدواعي والأسباب سواء اتصلت بظاهرنا أو بباطننا وسواء إكانـــت جمـــيلة في ذاتهـــا أم لما تضفيه علينا من منافع فإنها متحققة على الوجه الأكمـــل الأفرد في حق الذات الإلهية بل هي حقيقة في ذاته عارية في غيره، فهو مانح اللذة والإدراك للظاهر وهو الذي أودع في الباطن ذوقه ومعارفه، وفوق هذا فهو خالق العبد المحب كلـــه، وإذا كنا قد أحببنا ذواتنا وأحببنا من أجلها الأشياء لعلاقـــتها بها فإن الأمر الأوجب أن نحب مانح النفوس وجودها، والبداهة قاضية بـــأنني إذا أحببت فرعا فإن حبي للأصل أولى وألزم لأننا نعلم أنه لولا الأصل ما

كان الفرع، ومن انتبه إلى هذا استغرق في حب الله عن الأشياء وأغناه الأول عن الثاني ونادى مع الآية ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وهتف هتاف عمر للنبي: الآن أحببتك أكثر من نفسي يا رسول الله، عندما قال له الرسول يوما «**لا تؤمن حتى تحبني أكثر من نفسك**» نظرا لأن النبي يجذب النفس عن الهلاك وهي تودي بصاحبها فيه، وطبقا لهذا فإن ابن عربي قلل من أهمية الدور الذي تلعبه الحواس أو الأسباب الحسية والعقلية في كشفها الملاءمات والموافقات التي نحب الأشياء من أجلها والتي نرقى منها إلى حب الله، لأن الحس والعقل لا ينفكان عن التصور والتوهم والله وراء ذلك يقول:

فالأذن تعشق ما وهمي يصوره ... والعين تعشق محسوسا من الصور
فصاحب العين إن جاء الحبيب له ... يوما يبصره يلتذ بالنظر
وصاحب الأذن إن جاء الحبيب له ... في صورة الحس ما ينفك عن غير[1]

فالدلالات الحسية والعقلية عاجزة عن أن تقدم للقلب المثيرات الصحيحة للحب الإلهي على وجه خاص لكون أدوات الإدراك فيها لا تخلو من المحسوس والمعقول، والحق سبحانه أجل من هذين، والسبب الدقيق في إثارة العاطفة نحو الحب الإلهي هو الخبر وحديث الله عن ذاته بأنه كذا وكذا، هذا الحديث الذي يصف الذات بصفات ثبوتية تجعل قلب العبد طامعا في مقتضيات هذه الصفات وتعلقاتها من منحة ورحمة وموهبة وفضل وشفقة ونزول ومجيء وقرب، بخلاف

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٢: ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٠.

الصفات السلبية التي يضفيها العقل على الله لقصوره عن تصور الحق واستخدام عبارات السلوب كقوله ليس هكذا وليس كذا فإنها لا تحفز الوجدان على الشوق، وكيف تحفزه وهي لا تصفه وإنما تسلب وتنفي عنه، لهذا كانت الأخبار الإلهية في نظر ابن عربي هي العارجة بشعور المسلم نحو ربه مثلما يقول:

حبي لغيرك موقوف على النظر ... ألا هواك فمبناه على الخبر

ويقول:

الأذن عاشقة والعين عاشقة ... شتان ما بين عشق العين والخبر[1]

وابن عربي يقودنا برفق إلى نظريته في المحبة وهو لا يريد أن يفصح عنها بطريقة مباشرة إنما يبدأ من منطلق ثابت لا يختلف عليه اثنان وهو الخبر وحديث الحق عن ذاته وصفاته وأسمائه وما تقتضيه من أفعال وأحداث كونية، وكأنه يذكرنا بهذا إلى أن الله هو خالق الكون المبدع للسموات والأرض، وأن خلقه لكل ما فيهما لا يتم إلا عن اختيار وإرادة وحب لهذه المخلوقات.

وبالتالي فهي مفطورة على المحبة سائرة إلى الله بدافع الشوق المركوز فيها، حتى الإنسان رغم تلك الحجب المحيطة به والتي تفصل بينه وبين المحجوب إلا أنه يحمل بحكم هذه المخلوقية المشحونة بموجبات الحب حنينا إلى واهب الوجود، ويعتبر هذا الدافع الخفي من ألطف الأسباب المؤدية للمحبة، وبه يشارك الإنسان بقية المخلوقات في التوجه الفطري والشوق الجبلي نحو الخالق جل جلاله.

يضاف إلى ذلك سبب آخر انفرد به الإنسان وهو خطاب الحق له في عالم الذر هذا الخطاب الذي ما زال الإنسان لو تحسس باطنه جيدا يجد له صدى حقيقيا في عمق شعوره ووجدانه، وإذن فإن السببين: الجبلي والروحي هما

---

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٢: ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٠.

اللذان يستحثان الإنسان على طلب الحق أولا وحبه ثانيا.

وينشد ابن عربي في ذلك:

وعن الحب صدرنا وعلى الحب جبلنا
فلذا جئناه قصدا ولهذا قد قبلنا[1]

واستند في هذين السببين على الخبر الذي يسوقه كثيرا كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق في عرفوني، وعلى قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا خلاف حول الاستدلال بالآية في هذا الصدد وإنما الخلاف حول الخبر فإن ابن تيمية يقول: لم أعثر له على أصل، ومن جانبنا نرى أنه حتى لو صح ما قاله ابن تيمية وسقط الاستدلال به فإن كثيرا من الآيات تسد مسده وتصلح سندا لفكرة ابن عربي الرامية إلى أن المخلوقات مركوزة على المعرفة والمحبة أو مدفوعة إليهما بدافع أصل الخلقة لأن الله يحدثنا في كثير من الآيات على أنه خلق السماوات والأرض باسم الرحمن (الفرقان ٥٩، الملك ٣، ١١٠، النبأ ٣٧).

وأخبرنا أن رحمته العامة وسعت كل شيء (الأعراف ١٥٦) فباسم الرحمن وبنعت الرحمة يمكن أن يقذف في فطرتنا منذ النشأة دافع الحب والشوق، وفوق هذا كله فإن روح الإنسان ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء ٨٥] وهي تواقة إلى عالمها الأصيل، وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان.

وبموازنة سريعة بين ما ذهب إليه المكي والغزالي من طرف وما ذهب إليه ابن

(١) ابن عربي الفتوحات المكية ج٢: ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٦ ب،٤٣٧.

عربي من طرف آخر نلحظ أن الأولين بدآ من الحس وانتقلا إلى الباطن ثم صعدا منه إلى الجمال والحس الذاتيين ثم إلى الله واهب الوجود ورب الكمال والجلال.

أما الشيخ الأكبر فإنه رفض هذا التدريج لاعتقاده أن المدارك الإنسانية على تفاوتها عاجزة عن أن تعرج بالإنسان إلى الحب الإلهي في تجرد ونقاء وصفاء وكل مجالها يجب أن يبقى في حدود العلاقات المادية كعلاقتنا بالموجودات أو علاقة الإنسان بالإنسان، ومن ثم فإن الدواعي الحقيقية التي تدفع العاطفة إلى الحب الروحي يبحث عنها في ما وراء هذه المدارك، ثم اهتدى ابن عربي إلى التدرج من الخبر الواصف للحق والمعرف به والمشوق إليه والمرغب فيما عنده إلى أننا نحتاج إليه في كل أمر إلى أن المخلوقات مجبولة على هذا الحنين والإنسان بصفة خاصة من بينها جمع أكثر من سبب خفي للمحبة.

ولا ريب أن طريقة ابن عربي أقرب إلى الروح الدينية من طريقة الغزالي التي بدت إقناعية وكستها مسحة عقلية وتحليلية، وبأدنى تأمل ندرك أن طريقة مؤلفي الصوفية في حديثهم عن المحبة قد عمقت وأكثرت من التفصيل والتعليل بصورة لم نعهدها عند رجال السلف المحبين من الصحابة والتابعين.

منازل المحبة وخصائص كل منزل

لما كانت الدواعي متعددة ومنها دواعي حسية وعقلية وروحية لذا تنوعت المحبة تبعا لاختلاف البواعث والمثيرات وتبعا للوشائج النفسية أو القلبية التي تتعلق بها، ويبدو أن الصوفية كانوا يتابعون بواطنهم بدقة كما راقبوا ظواهرهم بعناية فائقة وأنهم صوروا خلجات أنفسهم في كل حالة كانوا عليها تصويرا يتفق والحالة التي يحسونها، ومن هنا تحدثوا عن منازل للحب كل منزل له صلة خاصة بباطن الإنسان وله سمات معينة وخصائص محددة ومذاق مناسب له

كما فصلوا بين المنازل الكسبية التي تدخل المحبة في عداد المقامات لتعلق الجهد بها، وبين المنازل الوهبية التي هي فيض من عين الجود وبها تكون المحبة حالا من الأحوال الممنوحة للعبد، وتنحصر هذه المنازل في محبة النفس ومحبة العقل ومحبة القلب ومحبة الروح[1] وسنتحدث عن كل منها على حدة.

المنزل الأول: محبة النفس

إذا كانت الدواعي المثيرة للمحبة مهيجة لشهوة النفس ولذتها الحسية وتولد نوعا من الحب أقرب إلى الطبيعي منه إلى الروحاني، ومن البديهي أن تلك العاطفة تهدأ بالتلذذ بالمحبوب حسا والتمتع به من ناحية الشهوة[2] ولا يخفي أن هذه المحبة بصفتها الطبيعية والشهوانية ولطريقة إشباعها ليست منزلا من منازل الحب الإلهي عند ابن عربي والهروي اللهم إلا إذا أردنا من علاقة الحب بالنفس معنى يختلف عن الحس والشهوة والجنس، وطالبنا المحب في أول درجة له أن يشتغل بسياسة النفس ورياضتها كي ينتهي إلى معرفتها وكي يصل إلى تصفيتها ليجتاز عقبة النفس وهواها وكدوراتها حتى يصلح لمنزل أرقى من منازل المحبة الإلهية.

إذا عمدنا إلى هذا المعنى وجب أن نعتبر المحبة بهذه الصلة النفسية أول منزل يطؤه المحب[3] حسبما قال أبو الحسن الشاذلي وحماد بن مسلم.

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف ٢٣٩.

(٢) ابن عربي: الفتوحات ج٢: ١٤٥ وتحفة السفرة ٤٨-٥٠.

(٣) طبقات الشعراني ج٢: ١٠، ج١: ١١٥.

المنزل الثاني: محبة العقل

وهي التي تنشأ من مطالعة العقل لمنن الله ونظره في النعم الظاهرة والباطنة وفي إحسانه وإكرامه وعدله وجماله، وتثبت هذه المحبة باتباع السنة وإجابة الداعي والاستلذاذ بالخدمة، وتقتضي مع هذا قطع الوساوس والغفلة وكل ما يبعد عن المحبوب، كما تقتضي أيضا التسلية عن البلايا والمصائب بما يجد المحب من حلاوة الحب[1] وأقوى ما تصل إليه من تأثير على العبد هو الدهش والتحير كما يقول عزار بن مستودع البطائحي المحبة إذا خالطت العقول أدهشت وإذا لابست الأفكار حارت[2].

أي إن بدايتها التعقل والتفكر وطريقها الاتباع والاقتداء ونهايتها الدهش والحيرة كما نأخذ ذلك كله من أقوال الخراز وابن عليان والطوسي وابن القيم[3].

المنزل الثالث: محبة القلب

عندما ينتهي المحب من قطع النفس عن المحسوسات والمألوفات ويتأمل نعم الله وآلاءه وعدله وجماله ويجتاز مرحلة التعقل يعمد إلى القلب فينقيه ويسوسه ويتجه به صوب المحبوب لا في إحسانه وفيض كرمه ولكن يطالع بمرآة القلب المجلوة صفات الحق التي هي منبع الأفعال والجود، وعندئذ يظهر نوع من الحب جديد وفريد في نوعه ومبعثه عن الحب في المنزلين الأولين، وفيه يلوذ القلب إلى المحبوب وحده ويؤثره بالحب على غيره ويتعلق به تعلقا يخلو من النفعية غالبا وتحترق معه نار الطبع والجبلة وإن بقي معه عامل الاختيار وتفضيل المولى

---

(١) انظر مدارج السالكين ج٣: ٣٦-٣٩ وتحفة السفرة ٤٩.

(٢) طبقات الشعراني ج١: ١١٤.

(٣) طبقات السلمي: ٥٤، ١٠٢ واللمع: ٨٦ ومدارج السالكين ج٣: ١٧.

عز وجل عن كل ما سواه[1] فأولـــه تصفية ووسطه مطالعة وتعلق وذكر وطاعة، ونهايته إيثار بلا فناء كامل.

أبرز خصائص المنازل الثلاثة

(ا) **هي كسب ومقام:** ما دامت المحبة كما رأينا في هذه المنازل قامت أساسا على الجهـــد والتنقية والتصفية و العمل والمتابعة، وجاءت نتيجة وثمرة للمجاهدة والـــتعقل والتأمل والمطالعة فإنها بلا شك تعتبر كسبية إلى حد كبير لتدخل عـــامل الإرادة والاختيار والتوجه وحسن القصد وإخلاص العمل في إيجادها وبعثها في النفس أو الفكر أو القلب.

وإذا كان الجهد والكسب هو العامل الحاسم والمؤثر في إيقاظها فهي من هذه الـــزاوية مقـــام لا حال، وهذا ما نفسر به وجهة أبي طالب المكي في قوله: المحبة أعلى المقامات وقولـــه مرة أخرى: وهي أعلى مقامات العارفين [2] وقول الغزالي وطاش كبرى زاده وعماد الدين الأموي هي الغاية القصوى من المقامات[3]؛ لأن المقام يثبت طويلا ويقوم على الكسب والاختيار والبذل، وكذلك المحب في هذه المـــدارج مجـــد يدوم مكثه في المنـــزل فترة حتى ينتقل إلى غيره بعدما يكون قد تأهب واستعد له.

وأيضـــا فـــإنهم قد اتفقوا على تسمية المحبة في المنـــزل الأول والثاني بالمحبة العامة، وبعضهم أضاف إلى ذلك المنـــزل الثالث، والبعض الآخر أطلق عليه اسم

---

(١) الهـــروي: مـــنازل السائرين، وابن القيم مدارج السالكين ج٣: ٣٩ ، والسهروردي: عوارف المعارف: ٢٣٩.

(٢) المكى قوت القلوب ج١: ٢٤٣ ج٢: ٥٠.

(٣) الغزالي الإحياء ج٤: ٢٥٢ ومفتاح السعادة لزاده ج٣: ٤٦٨ – ٤٦٩ وحياة القلوب للأموي ج٢: ٧٣.

المحبة الخاصة في مقابل محبة الروح التي هي لخاصة الخاصة، وبصرف النظر عن الاختلاف حول هذه التسمية فإن الكسبية يشملها حقيقة، وجاءت النصوص تردف الحب بالعمل كقوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦] وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله فأما الذين يحبهم الله، فرجل أتى قوما فسألهم بالله ولم يسألهم لقرابة بينه وبينهم فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله تعالى والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل بهم فوضعوا رءوسهم فقام أحدهم يتملقني ويتلو آياتي، ورجل كان في سربه فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني والفقير المختال والغني الظلوم**»[1] وقال الله: «**وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**».

فقد علق الحب على الكسب والعمل في كل نص من هذه النصوص السابقة حسبما رأينا، وبه قال الصوفية تماما عندما استقل أحمد بن أبي الحواري وحاتم الأصم ويحيى بن معاذ والبسطامي وأبو حفص النيسابوري كل جهد بذله المحب لإرضاء المحبوب مهما كان كثيرا.

وأعلن جمع كبير منهم كسهل والجيري والجنيد ورويم والبلخي والقصاب وأبي محمد النيسابوري والمكي أن المحبة في هذه الأدوار هي الموافقة والاتباع ولزوم الأدب ومحبة الأمر وبغض النهي وإيثار المحبوب بطول الذكر والتهجد والتقرب إليه والانطواء تحت سلطانه بالطاعة والعبادة والعبودية.

وباختصار لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلا أهل المحبة وإنما وجدوا تلك

---

(١) التاج ج٥: ٢١٣.

من اتباع السنة ومجانبة البدعة وكالاجماع من إطلاقات القوم إن المحبة هي الموافقة وأشد الموافقات الموافقة بالقلب[1]، كما قال أبو بكر الترمذي والقشيري وأكده الهجويري والجيلاني والسهروردي وابن تيمية وابن عربي.

(٢) **التحمل والرضا**: لما ادعى الصوفية تلك المحبة، وصرحوا أنهم آثروا الله على أنفسهم وعلى كل ما يملكون اختبرهم الحق في صدق ما يدعون فابتلاهم في ذات الحب بالصد والهجر، وامتحنهم في النفس والمال والولد والأهل أدركوا علة ذلك وحكمته فوطئوا أنفسهم على تحمل البلاء والمحن واستعذبوا في سبيل المحبوب وابتغاء وجهه كل صنوف الاختبارات وأنواعها قائلين: إذا أحبك دللك وعافاك وإذا أحببته أتبعك وأبلاك ومن تعرض لمحبته جاءته المحن والبلايا بالأقتاب، أي الأحمال الثقيلة.

وبهذا صرح خير النساج والحلاج والدينوري والشبلي وابن خفيف، ويروون في ذلك قول النبي ﷺ: «**أكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**» وقوله: «**إذا أحب الله عبدا ابتلاه**» وكذلك يسوقون الآيات الدالة على أن الله يختبر ويمحص ويبتلي الصادقين والمؤمنين، ولم يقف الصوفية عند التحمل السلبي الذي يصمت فيه المحب المبتلى ولا يجأر بالشكوى بل أرادوه تحملا وصبرا إيجابيا مشفوعا بالرضا القلبي عن فعل المحبوب فأعلن عمرو بن عثمان المكي: إن المحبة داخلة في الرضا ولا محبة إلا بالرضا ولا رضا إلا بمحبة لأنك لا تحب إلا ما رضيت وارتضيت ولا ترضى إلا ما أحببت، وهتف الهجويري ينبغي رضا المحبوب[2] إذ هو غاية المحبين مهما فعل بهم.

---

(١) التاج: ٢١٣.

(٢) انظر طبقات السلمى: ٦٧: ٣٨، ٥٠، ٧٨، ٨٦، الرسالة ج٢: ٦٢٤ ط د/عبد الحليم، طبقات الشعراني ج١: ٧٤، تاريخ بغداد ج٨: ٤٣١ الفتح الرباني للجيلاني: =

(٣) **الكل فداء المحبوب**: وهذا النوع من المحبة رغم أنهم وصفوه بأنه كسبي وقائم على الجهد لا الجذب إلا أن رجال الطريق أرادوه حبا استغراقيا وميلا بالكلية كما يقول الحارث المحاسبي[١] وأعلنوا أن المحبوب هو المقصد والمطلب وليس غير، مثلما ينشد ذو النون:

منأى المنى كل المنى أنت لي منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند افتقاري
وأنت مدى سؤالي وغاية رغبتي ... وموضع آمالي ومكنون إضماري[٢]

فقد اعتصروا الكلام عصرا لتتناسب الألفاظ مع سمو الغاية وشغل الطالب بها والتفاني من أجلها، وقطع جميع الصلات والتفاني في سبيلها، والحب في هذا الدور يهيج كوامن الشوق دائما في نفس المحبوب فتراه منزعجا في الدنو والبعد واللقاء والحجاب ولا يتسلى عن المحبوب بشيء أبدا على حد تعبيرات أبي حفص النيسابوري والخراز والنصر باذي[٣] ويتصاعد الحب وتقوى فورته وتنتهي الحياة وما أدرك الإنسان من مشتهاه وما حصل منه كل أمانيه لأنه ليس من قبيل الحب الذي يروي الظمأ في فترة من الفترات ثم يخمد الطلب وتهدأ الرغبة ويحدث العزوف مثلما يطرأ ذلك كله في الحب الحسي، إنما هو حب إلهي لا تنتهي الحاجة فيه إلى الحد ولا يقف الطالب له عند معراج واحد، ولكن يظل يحب ويرقى ويصعد وينقضي العمر وما حصل المحب النهاية، وفي ذلك يقول ذو النون أيضا.

= ٢٢، ٩٧: ١٤٩، ٢٢٢، عوارف المعارف ٢٣٩ قوت القلوب ج٢: ٥١، ٧١ الفتوحات المكية ج٢: ٤٢٦، ٤٧٨ فتاوى ابن تيمية ج٢: ٣٧٠-٤٠٠، ٢ طبقات السلمى: ٤٨ والصوفية في الإسلام لنيكلسون: ١٠٨.

(١) الرسالة القشيرية ج٢: ٦١٤.

(٢) طبقات السلمى: ١١.

(٣) طبقات السلمي: ٢٨، ٤٨، ١١.

أمـــوت ومـــا ماتت إليك حبابتي ولا قضـــيت مـــن صدق حبك

وإن هـــذه الصبابة لتستولي على العبد وتضفي عليه حتى تفقده أعز ما يملك وحـــتى تنحل بدنه من شدة ما يجد وبهذا اعترف البسطامي والسري السقطي[٢]. وهـــذه المعـــاني هي المرادة في قول الرسول ﷺ «**اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد**».

(٤) **الحب هيبة وبسط**: مهما استولى الحب على صاحبه فاستفرقه وأتلفه وأنحلـــه إلا أنه ينبغي أن نعلم أن الصوفية لم يريدوه إدلالا كلـــه أو عاطفة تخلو من معـــاني الخـــوف والتعظيم، ورفضوا في هذا الشأن علاقة العبد القائمة على الخوف فقط أو على الحب فحسب، لأن من عرف اللـــه طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عرفه بطريق المحبة بغير خوف هلـــك بالبســـط والإدلال[٣] والعلاقـــة الإيمانية الصحيحة هي الجامعة بين الخوف والحب المستشعرة لهيبة الجلال وتعالى الكمال.

ومن ثم أكد رجال الطريق على أن الحب الصحيح هو الذي يذل العبد للـــه وعـــلى أن مـــن عرف اللـــه من طريق المحبة والخوف أحبه اللـــه فقربه وعلمه ومكنه، فالمحبون يهابونه في حبهم،وفي فزعهم منه يشتاقون إليه، وفي بسطهم لـــه ينقبضـــون بين يديه، وفي إعزازه لهم يذلون لـــه، وللمحبين الانقباض في البسط ولـــلخائفين البسط في القبض، وللمحبين الذل مع العز والكرامة وللخائفين الذل مـــع الهيبة، والنتيجة من وراء هذا أن المحبة لا ترفع الهيبة، بل كل محب خائف إما مـــن البعد أو الإعراض أو السلب أو القبض عن الذكر أو ضيق الصدر بالبر، أو

---

(١) نفسه.

(٢) مناقب أبي يزيد ١١٥ ووفيات الأعيان ج٢: ١٠٢- ١٠٣ وتاريخ بغداد: ١٩١.

(٣) المكي قوت القلوب ج٢: ٥٩-٦٠ وتاريخ بغداد ج١٤: ٢١١.

من السلو وهو مقدمة البغض أو من الاستبدال وهو نهاية المقت، وعند اجتماع العاطفتين قد تكون المحبة ثوابا للخوف ومزيدا له وهذا في مقام العاملين، وقد يكون الخوف مزيد المحبة وثوابها وهذا في مقام العالمين.

وصاحب المقام الأول من المقربين المحبوبين والثاني من الأبرار المحبين، وإذا صح اجتماع الخوف والحب في قلوب المحبين فإنه لا يلزم أن يكون الخائف محبا بمعنى الحب الخاص أو حب القرب الذي تتسع فيه العطايا ويحدث للمحب فوت من النار[1] وكل ما ينال الخائف من الحب هو الحب المفروض المراد من قوله تعالى في الحديث «**ما تقرب عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه**» والمحب ينال الحب المفترض من هذا وحب الزيادة في قوله تعالى «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**....» إلى آخر الحديث.

(٥) **التلازم بين الحب والغيرة:** كما امتزج الحب بالخوف والتعظيم فإن هذه المشاعر المجتمعة تولد في المحب الغيرة على ذات المحبوب وعلى محارمه، وإذا كان العاشق يغار على المحبوب الحسي في عرضه وحرمته غطي الوجه الأحق أن يغار الروحيون على المحبوب الأعلى في وحدانيته وشريعته وحدوده أو على حد تعبير ابن عربي وهذا أحق ما يوجد في حق من يحب الله تعالى، أو هو ما ينبغي أن يكون الأمر عليه تعظيما للجناب الأقدس[2]، سبحانه وقال جل ثناؤه في وصف المحبين والمحبوبين: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذه الصفات في مجموعها وتفصيلها تثير غيرة المحب على المحبوب وتحفزه

(١) نفسه.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٢: ٤٧٢- ٤٧٣.

على أن يبذل الجهد والنفس والمال في سبيله ولا يخشى في الدعوة إليه لوم العذال أو الأفاكين.

المنزل الرابع: محبة الروح

وهي المحبة التي تلي محبة القلب في العلو والسمو، واعتبرها أبو الحسن الشاذلي دون قمة المحبة بدرجة واحدة، وبناء عليه فهي داخلة في إطار المحبة العامة التي تعتمد على الكسب والجهد، بينما اعتبرها عزار بن مستودع البطائحي غاية الحب وذروته قائلاً: المحبة إذا ما زجت الروح طارت[1]، إلى المحبوب عملاً ومطالعة وتشبهًا وتحققًا بصفاته، وتحت يقين أنوارها تضمحل العقول وتقطع العبارة وتدفع الإشارة ولا تنتهي بالنعوت[2].

والمحبة في هذا المعراج حال لا مقام مثلما ذهب إلى ذلك سحنون وأبو نصر الطوسي والقشيري[3]، وعليه فمن قال: إن المحبة مقام نظر إلى المنازل التي تتحقق المحبة فيها بالكسب، ومن قال: إنها حال نظرًا إلى هذا المنزل وهو محبة الروح، وكما فصلنا بعض الأحكام المتعلقة بالمنازل الثلاثة الأولى نلمح إلى أحكام تخص المنزل الرابع.

خصائص المنزل الرابع

(١) **المحبة هنا وهب**: يحلو لبعض الباحثين أن يقول: إن المحبة كلها وهب ويذهب البعض الآخر إلى أنها كسب، ويستند هؤلاء وهؤلاء على أقوال الصوفية التي تأتي مرة مشيرة إلى أنها ثمرة الجهد وترد أخرى دالة على أن المحبة منحة ومنة،

---

(١) طبقات الشعراني ج١: ١١٤.
(٢) مدارج السالكين: ج٣: ٣٩: ٤٠.
(٣) طبقات السلمي: ٤٦ واللمع ٨٦ والرسالة ج٣: ٦١٢ ط د/عبد الحليم.

وأرى:

أولا: أن كل صوفي عبر عن ذوقه وحاله الخاص فمن جذب ابتداء نطق بأنها جذب، ومن سلك في البداية ركن إلى كسبيتها باعتبار أن الجهد كان سببا في نوالها.

وثانيا: فإننا ما دمنا نضع ذواتنا على أول الطريق باختيارنا وإرادتنا ونسلك بفتوتنا ثم نظل متنقلين متدرجين متجهين نحو الهدف ثم تأتينا المواهب وتهطل علينا المنن وتغمرنا المحبة كما حدثنا أبو الحسن الشاذلي، وما دمنا في ساعة من الساعات نفتقد هذه الإرادة ونتيه في أنس المحبوب، وما دامت المحبة بهذه الاعتبارات ليست واحدة فإنه يترتب على ذلك غالبا أن تكون المنازل الأولى من المحبة كسبية والمنزل الأرقى وهبيا، أي إن الثنائية هي الطابع العام لعاطفة الحب بدءا ونشوءا وارتقاء، وإلى ذلك أشار البسطامي بقوله: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته سبقت معرفتي ومحبته أقدم من محبتي[1].

فقد درج البسطامي على الطريق بخطا الإرادة والكسب فلما انتهى وكوشف تبين له أن العناية أزلية وأن التوفيق والاختيار أسبق من تدرجه وطلبه، والمهم أنه خطا بجهده قبل الكشف ثم كوشف فعرف أن ما يحياه بعد المطالعة حقيقة وما كان قبلها هو أشبه بالتوهم، وبهذه الثنائية أقر كل من المكي والسهروردي وابن عربي[2].

---

(١) نيكلسون: الصوفية في الإسلام: ١٠٩.

(٢) المكي: قوت القلوب ج٢: وعوارف المعارف للسهروردي ٣٣٩ والفتوحات لابن عربي ج٢: ٢٦-٢٧ وتحفة السفرة له أيضا، ٤٩.

ونـــادى جلال الرومي على مريديه أن يتمسكوا بالحب الترابي القائم على الكســـب وأن يتشـــبثوا بالخطا على الطريق كي تدوم لهم مواهبهم ومنحهم في المحبة[1].

ولا يفوتـــنا هـــنا أن نبين أن نيكلسون أخطأه الصواب حين فهم من عبارة البسطامي السابقة ومن عبارات الرومي أن الحب وهب فقط فهي لا تدل على ما يذهب إليه كما هو واضح من ألفاظها.

وإنمـــا قلنا في تقرير الثنائية إنها غالبة لا قطعية لأنه ليس حتما أن يمر السالك بهـــذا الـــتجرد كي يصل إلى ذروة المحبة بالروح ولكن قد يجذب ابتداء وفي لمحة واحـــدة فيضمحل حسه وفؤاده وتطير عباراته ويكاشف بروحه ويصير مطلوبا بالحـــب لا طالبا، وعندئذ يقول ما قالته رابعة حين أرجعت الفضل إلى اللـــه في حب الهوى وفي حب الذات فنشأت تناجي:

فـــلا الحمـــد لي في ذا ولا ذاك لي ولكـــن للـــه الحمد في ذا وذاك

وقـــال معروف الكرخي: المحبة ليست من تعليم، الخلق إنما هي من مواهب الحـــق وفضله[2] وصرح أحمد بن محمد بن مسروق بأن الحب تعطف من المحبوب على المحب لصدقه[3].

فممـــا لا شك فيه أن هؤلاء كانوا يعنون محبة أهل الجذب الذين من عليهم الحـــق فاصطفاهم أو المحبة الروحية التي هي قمة مراحل الحب، وقد جاءت الأدلة تصرح بوجود هذا النوع من الحب للعبيد كقولـــه تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً

(١) نيكلسون: الصوفية في الإسلام، ١٠٩-١١٠.
(٢) طبقات السلمى: ١٢.
(٣) تاريخ بغداد: ١٠٠.

مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ ﴾[طه: ٣٩] وقال رسول الله: «**إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبه**» ورواية الترمذي «**ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض**».

(٢) **قدم المحبة**: إذا اختصت المحبة العامة بالعقيدة والجانب العملي والمجاهدة فإن المحبة الوهبية أو الخاصة أو محبة الروح ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظريات الصوفية بحيث يكتشف المحبوب أثناء جذبات الحب القوية كثيرا من الأسرار ويذوقون ألوانا جمة من المعارف .

وأول هذه الأسرار أنهم يفقهون أن الحب الخاص قديم، وأنه محض سبق العناية، وقد عبر عن تلك الحقيقة كثير من المحبين والمتيمين منهم جارية لعطاء بن رباح قالت: بحبك لي إلا ما رحمتني، فقال لها: قولي: بحبي لك، فقالت: إليك عني بإبطال ذوحق حقه لو لم يحبني ما أنامك وأقامني[1].

وسمع إبراهيم بن المهلب جارية أخرى تقول وهي معلقة بأستار الكعبة سيدي بحبك لي إلا رددت علي قلبي، فقال لها: من أين تعلمين أنه يحبك؟ قالت: بالعناية القديمة جيش الجيوش في طلبي وأنفق الأموال حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في التوحيد وعرفني نفسه بعد جهلي إياه فهل هذا يا إبراهيم إلا العناية والمحبة، وأنشد متيم ثالث:

تعلقت بالأستار والبيت زرته ... وأنت بما في القلب والسر أعلم
أتيت إليك ماشيا غير راكب ... لأني على صغري محب متيم
هويتك طفلا حيث لا أعرف الهوى ... فلا تعذلوني إني متعلم

وقال ذو النون المصري:

وله خصائص مصطفون لحبه ... اختارهم في سالف الأزمان

---

(١) اليافعي: روض الرياحين: ٣٧.

اختارهم من قبل فطرة خلقه فهم ودائع حكمه وبيان

وفسر الشبلي قدم المحبة ومتى كانت وعلى من وقعت فقال:

عرضنا على المولى ونحن عبيد فمنا شقي رده وسعيد
فمن كان منا ليس يصلح خادما فعن بابه بالطرد ذاك بعيد
ومن كان يصلح فهو في قدس قريب ومقبول هناك حميد
حبيب له جاه عريض ورفعة ومجد على مر الجديد جديد[1]

فقد أرجع الشبلي المحبة إلى حالنا ونحن عبيد في عالم الذر يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧١] هذه العبودية المجردة المحصنة التي لا تملك الأرواح فيها ردا لأمر الله وذلك قبل أن تنزل من العالم الأسمى إلى عالم الأبدان، والعبودية على هذا النحو ذات منزلة رفيعة عند الصوفية، وهي هدف يسعون إليه إن تنادوا بالتصفية أو الفناء أوالمشاهدة أو حاولوا كشف سر الوجود أو أعلنوا عن قدم المحبة المتصلة بالروح.

وكثيرا ما يتواصون فيقولون: ينبغي أن تكون كما كنت قبل أن تكون، أي إنهم يحاولون دائما أن يجعلوا من وجودهم على ظهر الأرض وجودا نقيا ومن نفوسهم نفوسا طاهرة ومن عبوديتهم الحسية المصورة عبودية كتلك التي كانت في عالم الأرواح مجردة، وكم ينفرون من العبودية المليئة بالحرص والهوى والمبلدة بالعوائق والعوارض والمتألهة تحت دوافع الغرور وغواية العدو، ويفرون إلى تلك الحالة الصافية الخاضعة التي تخلو من كل الحجب والكدورات والتي أشربت يومها كأس الحب لمن أراد الله سبحانه فخرج المخطي بهذا هائما مهديا متجها نحو المحبوب في الطفولة قبل أن يتعلم بعقله عاطفة الحب ونعته، وما ذلك إلا لأنهم جاءوا إلى الدنيا وقد أفعمت قلوبهم بالمحبة وعرفوا طريقها وذوقها.

---

(١) نفسه: ٥٠، ٥٢، ٢٣، ٣٦.

ولا شك أن اعتناق الصوفية لفكرة قدم المحبة وعلاقتها بأرواحنا في عالم الأزل خلق فيهم شعورين قويين:

أحدهما: ينشأ من إحساس أرواحهم بأنها بعيدة عن وطنها الأصلي وطن الحقائق والأنوار وطن الواحدية والأحدية وأنها محوطة بديار الظلمة والتكثر والحجب، ومن هنا تردد النفس نداء الغربة والصد والهجر، وتنبعث منها الرعدة ويكثر بها الجوى ويشتد الهيام، وتتعالى الزفرات خصوصا عندما ينظرون إلى ما حولهم من مظاهر الحس والتقييد،وتثير ألفاظ الحب الحسي عندما تلقي على أسماعهم مكامن الشوق فيهم وتضطرم نفوسهم بما يجيش في داخلهم، فإذا سمع الحارث المحاسبي هاتفا ينشد

أن في الغربة أبكى ... ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي ... من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي ... وطنا فيه حبيبي

قام المحاسبي وتواجد وانفعلت روحه حتى رق له كل من حضره[1] لأن الأبيات لفتت نظره إلى قسوة الغربة وشدتها وما في العباد من حرمان وهجر كما ذكرته بالوطن الأصلي ويوم الخروج وساعات الفراق والرحيل والنزول بلا اختيار منه، ولقد صرف الحارث هذه المعاني الحسية إلى حالة من المحبة، وإلى فكرة القدم التي نحن بصددها.

وأما الشعور الثاني: فينشأ من انجذابهم الدائم إلى الأصل وإلى واهب الوجود ومانح الحب ومن أملهم في اللقاء والقرب، ولذا يحسون بالسعادة ويتغنون بألفاظ الوصل والبقاء والدنو والنظر والتملي وينشد أبو بكر الشبلي في فورة هذا الشعور:

---

(١) طبقات الشعراني ج١: ٦٤.

أليس من السعادة أن داري مجاورة لدارك في البلاد[1]

وتحت تأثير هذا الشعور يحسون أنهم يحملون روحا صالحة إلى الذهاب وجديرة بأن تحوم في تلك الرحاب، وهي دائمة التطلع إلى العودة والاتصال، ومستمرة النظر إلى الأنوار الأزلية رغم الحجب التي تحيط بها في عالم النوى، ولذا بذل أرباب الطريق من المحبين غاية الجهد وركبوا أقسى المخاطر وعبروا أعتى العقبات وقطعوا المفاوز الشاسعة وتجشموا المصاعب وتلذذوا بالمتاعب وصولا إلى ديار المحبوب، ويصور لنا ذو النون حالة العودة وصعوبتها فيقول:

ركب المحب إلى الحبيب سفينة تجري من الخطرات في أمواج
في سر سر السر سرا أقلعت في لج بحر زاخر عجاج
يا حسنها تجري به متفردا بعلومه في جنح ليل داج
فالقلب مشكاة وفيه زجاجة قد علقت بسلاسل المنهاج
متوقد بالنور من زيتونة تسقى سراجا فاق كل سراج[2]

ولا هم لهم إلا أن تعرج أرواحهم وتغني نفوسهم برغباتها وأهوائها وحجبها كي يتعرسوا في جنبات القرب كما يقول الخراز:

همومهم جوالة بمعسكر به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
وما عرسوا إلا بقرب حبيبهم وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر[3]

ومهما كان البعاد والحجاب فإن الزيارة واجبة على المحبين على حد نظم الصوفي الخرساني:

زر من هويت وإن شطت بك الدار وحال من دونه حجب وأستار

---

(١) اللمع: ٤٨٧.
(٢) روض الرياحين: ٤٣.
(٣) روض الرياحين: ٩٩، ٦٨.

لا يمنعنك بعد عن زيارته إن المحب لمن يهواه زوار[1]

ولا ننسى في هذه النقطة ابن الفارض ولا نستطيع أن نتجاهل حبه وهيامه وعشقه الذي تغنى به في شعر قلما تجود به عقليات المحبين من أمثاله سواء في قوة المعنى أم دقة اللفظ وإحكام النسق وقوة التصوير وحسن التشبيه وإن كنت أرى أنه في حديثه عن قدم المحبة خصوصا في تائيته الكبرى كان ينظم ما سبقته به فتاة عطاء وابن المهلب والمتيم ومن سبق ذكرهم كما ردد المعاني التي نظمها الشبلي، وبعبارة وجيزة كان ابن الفارض عالة على من ذكرنا في التعبير عن الحب النازل من الله منحة للعبد، كما اقتدى أثر رابعة العدوية والمحاسبي وعمرو بن عثمان المكي وذي النون المصري والخراز والهروي في تصوير الحب الصاعد من العبد إلى الله سبحانه حيث تحدث هؤلاء الصوفية الذين كانوا أقدم منه في العروج والصعود من حب الإحسان إلى مطالعة الصفات إلى حب الذات، ويمكن أن يكون قول النبي ﷺ: «**إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا**» دليلا على الحب النازل أو الممنوح، كما يعتبر الحديث القدسي «**ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه...**» إلى آخر الحديث دليلا على الصعود بالعمل والتقرب لتقوية الحب وأواصره، وأيضا فإن قول رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: هؤلاء خلقت للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[2] دليل على قدم المحبة لأن الحب من أسمى صفات أهل الجنة.

---

(١) روض الرياحين: ٩٩، ٦٨.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن (في تفسير سورة الأعراف) ورواه الإمام مالك في الموطأ في باب النهي عن القول بالقضاء والقدر.

(٣) **علاقة الحب بالمذاقات الأخرى**: قلنا إن المحبة ترتبط بنظريات الفناء والشهود وسنرجئ الحديث عن علاقتها بهاتين النظريتين إلى مواضعهما، ونقتصر هنا على الوقوف عند نقطة واحدة وهي الاختلاف حول سبق المحبة عن الفناء أو تأخرها عنه.

وفي ذلك يرى الإمام الهروي أن المحو والفناء غاية والمحبة دونها وهي في نظر هذا الصوفي السلفي أول أودية الفناء والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو، وهي آخر منزل تلتقي فيه مقدمة العامة وساقة الخاصة[١]. أي إن نقطة الالتقاء بينهما تكمن في السابقين من عامة المحبين مع مؤخرة أهل الخصوص، وينفرد الخاصة بما فوق المحبة من الفناء والشهود والوجود ويشاركه في هذا الرأي ابن القيم الجوزية.

أما السهروردي البغدادي من الصوفية السنيين فيصرح بأن المحبة غاية تندرج فيها المقامات والأحوال وإذا خلصت المحبة وأخذ المحب في طريق المحبوبين يطوي بساط أطوار المقامات، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها، والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها، فكأن الحب قام بالتصفية مقام جميع المدارك التي ينتقل فيها السالك وما زال الحب يصفيه حتى لانت نفسه وتعلقت الروح بالحضرة الإلهية، وأشرقت عليها أنوار الحب الخالص فذاقت سائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك وإليه مال ابن تيمية[٢]

ويمكن التوفيق بين الرأيين بأن يقال: إن ما قصده الهروي وابن القيم من

---

(١) مدارك السالكين ج٣: ٣٣-٣٤.

(٢) السهروردي عوارف المعارف: ٢٤٠، ابن تيمية الرسائل والمسائل ج١: ١٦٢.

كون المحبة دون الفناء هو المحبة الكسبية في المنازل الأولى أما محبة الشهود الصفاتي أو الذاتي التي ذكرها الهروي فهي حاوية للفناء والشهود وهي المرادة بالمحبة الخالصة التي أشرقت فيها الأنوار عند السهروردي وابن تيمية، وبالتالي فهم يتفقون على أن المحبة العامة أدنى من الفناء والشهود وأما المحبة الشهودية الخالصة فيقررون معا أنها جامعة للمذاقات الأخرى.

(٤) **طغيان المحبة**: قد يطغى الحب على عقل وقلب المحب فيأتي بأفعال وأقوال تخرج عن حد الاعتدال، وهذه الأقوال منها ما لا يمكن إقراره ومنها ما لا يمكن الدفاع عنه أو تلمس العذر له وهو ما يصدر من المحبين الذين حافظوا على الحدود وأقاموا الأحكام، إلا أنهم في شدة الحب وسورته تفوهوا بعبارات لا حيلة لهم فيها، كما وقع لرابعة حين سئلت كيف حبك لرسول الله؟ قالت: والله إني لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوق[١]، وسئلت أتكرهين إبليس؟ فقالت: إن حبي لله لم يدع في قلبي مكانا لكره إبليس[٢].

ومن هذا القبيل ما ورد على ألسنة المتيمين ممن تسموا بمجانين العقلاء وهم الذين جنهم الحب وهيمهم الود، ولقد رأى أبو سعيد الخراز النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله اعذرني فإن محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال الرسول: «**من أحب الله فقد أحبني**»[٣].

وأخبرنا عبد الله الدمشقي أنه كان في بيت الشبلي يوما فأخر العصر إلى

---

(١) الغزالي الإحياء ج٤: ٣٠٨.
(٢) حتى: الإسلام منهج حياة: ١٣٣.
(٣) السالة القشيرية: ١٦٠.

قبيل الغروب ثم قال: الصلاة يا سادتي فلما صلى أنشأ يقول:

نسيت اليوم من عشقي صلاتي فلا أدري غدائي من عشائي
فذكرك سيدي أكلي وشربي ووجهك إن رأيت شفاء دائي[1]

ويمكن الدفاع عن هؤلاء بأن يقال:

(أ) إن هؤلاء المحبين قد أسكرهم الحب فأفناهم وشربوا من كاساته فأطاشهم فهم معذورون بسكرهم، ولم ينتظر هؤلاء حتى ينافح عنهم الغير بل قاموا بالإفصاح عن حالهم حتى لا يساء الظن بهم فقالت جارية مجنونة في عهد عتبة الغلام تصف ما عليه المجانين.

حيرهم محبة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن قد شجاهم جميع ما يعرفونا

وقال الآخر:

وموهت دهري بالجنون على الورى لأكتم ما بي من هواه فما انكتم
فلما رأيت الشوق والجذب قاتلي هجرت طعامي والشراب ولم أتم
فإن قيل مجنون فقد جن في الهوى وإن قيل مسقام فما بي من

وأكد اليافعي أن ما أصابهم هو شدة وله يوجد في كثير من الأولياء[3] وأربابه مقهورون تحت سورة الوجد والحب.

(ب)وإذا عرفنا أن عبارات سحنون تكسرت لها قناديل المسجد ووفدت عليها الطيور وتواجدت لها أدركنا كم بلغ الحب بالمحبين من قوة وكم أثر على

---

(١) طبقات السلمى: ٨٣.
(٢) اليافعى: روض الرياحين: ٢٠٠، ٢٠١.
(٣) نفسه: ٢٠١.

الإنسان والجماد والحيوان، مما جعل ابن تيمية يلتمس العذر لهؤلاء السكارى[1]

(جـ)وحدثنا الرسول ﷺ: أنه «لا طلاق في إغلاق» ومعناه أن الغضب يحدث استغلاقا في العقل لا يقع الطلاق معه، وإذا كان كذلك فكيف لا نسلم بسورة الحب ونسلم مع ذلك بالعفو لبعض المحبين عما بدر منهم أثناء السكر، كما أخبرنا النبي كذلك: إن الله تلقى عبدا بالمغفرة والحال أنه أمر أولاده أن يحرقوه ويذروه إذا مات خوفا من الله سبحانه، وقياسا على ذلك أفلا يتقبل الله روحا فاضت أو لسانا تجاوز الحد قليلا في حال الطيش بالحب.

(د) ورغم أن الهائمين كان يمكن أن يتطلوا بما يجدونه في أنفسهم من وله إلا أن كلا منهم كان يناجي ربه بما قاله المكي: رب وفقني لما تحب واعصمني مما تكره فإني بشر جاهل لا أحسن التدبير ولا أعرف المقادير ولا علم لي بعواقب الأمور وأخاف أن يكون في قولي تفاوت وفي إرادتي اضطراب[2]، فقد اهتموا بالتوفيق والحفظ والاستقامة مع شدة وهياج المحبة، وحسن القصد يشفع لصاحبه كثيرا.

وأما الخروج الذي لا يمكن الدفاع عنه ولا نجد له سندا شرعيا بالنص أو بالقياس فهو ما نجده عند ابن عربي مثل قوله: إن الله يعلم من عباده المحبين له أنهم غير مطالبين بالقيام بما كلفهم به فأسقط عنهم التكليف بل زاد فأباح لهم مجاوزة الحدود أي أحل ما حرم على غيرهم بأن يفعلوا ما يشاءون ويقول:

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى ج٢: ٣٩٥.

(٢) قوت القلوب ج٢: ٧١.

المحب مثل الدابة جرحه جبار[1]، فهذا الكلام وأمثاله يخالف ما أمر الله به من تعظيم الحرمات ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠، ٣٢].

كما يخالف قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[الحشر: ٧].

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التكليف لم يرفع إلا عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يبلغ وعن المجنون بحلال حتى يفيق، ولو أن ابن عربي وقف عند إعذار القوم فقط دون أن يفصح عن إسقاط التكليف على وجه عام لكان قوله مقبولا ومحددا، وأخيرا فإن ذهاب العقول وطرو الجنون هو سمة الناقص من الخلق أما أهل الكمال كالصحابة والتابعين ومن على شاكلتهم فإنهم أحبوا واشتاقوا ومع ذلك قاموا بالتكليف وما خرجوا أو شردوا.

(هـ) **الحب بلا عوض**: كل عبادة أو عاطفة متوجهة من العبد إلى الله يقصد من ورائها مرضاة الحق سبحانه لكونه مستحقا للعبادة بذاته وكذلك حصول العبد على الأجر الأخروي والإحسان الدنيوي وإذا ما أمعن العبد النظر ورق قلبه وتعمق إيمانه وسما في عبادته تحول من شوائب العبادة كرؤيتها والاستمتاع بكونه عابدا أمام الخلق وكبذلها في العلانية وكالحديث عن طاعته إلى السر والتحقق بالإخلاص والإخفاء، ثم تحول من طلب النفع والأجر ومن السر والإخلاص إلى إسقاط كل هذا من نفسه فلا يرى سره وإخلاصه ولا يطلب على بذله وجهده عوضا لكونه استغرق في شهود الحق وفي عبادة الإحسان عندئذ يستعذب عبادة الذات على كل ما سواها

(١) الفتوحات المكية ج٢: ٣٥٧.

وتسمو عواطفه فوق كل رغبة لاستشعارها أسرار الذات ومطالعتها أنواره.

ونجد هذه التحولات سارية مع كل عبادة كالصلاة والزكاة ومع كل عاطفة كالخوف فإنه إما من النار وإما من المقام وكالحب فإنه إما لطلب الأجر كالجنة والوصل والقرب والمكاشفة وإما لذات الله ولحلاوة محبته بقطع النظر عن كل ما وراء الذات.

والنوع الثاني من عاطفة الحب هو المناسب مع المحبة والوهبية المتصلة بالروح والتي تسامت فوق حب الإحسان وحب المنفعة، وفيه نرى المحبين الذين منحوا ذوق المحبة حقيقة وأزيلت عنهم الحجب كلية راحوا في هذا المذاق وتحت لذة هذه العاطفة يستهونون كل ما سواها من جنة ونار، ويبين معروف الكرخي أن المحبة أنسته إياهما كما أنسته أهوال القبر والبرزخ.

وأنشد شاب متيم مفصحا عن دقيق حبه بأنه لا يهوى عبادة أرباب الأجر ولا الوجلين من النار ولا يطلب وصلا وراء حبه فهو لا يبغي بحب الذات بديلا وإن طرد من الجنة ظل ينتحب في النار ويطلب من المعذبين أن ينوحوا معه على أيام قضاها في صدق الحب وما زال على عهده بالوفاء لا يفارقه[1].

وإذا استهانوا بالأجر والعوض الأخروي فمن باب أولى يستقلون أو يفنون عن كل نعيم دنيوي وعن كل سوى وغير كما نطق ذو النون المصري بذلك، وقد يقال: إنهم إذا تجردوا من النفع وطلب الأجر الدنيويين والأخرويين لعلهم قصدوا من وراء حبهم أن يكون سببا في المنح والعطايا الربانية أو لعلهم شغلوا بالتجليات الذاتية عن المثوبة والمنفعة، وحلت في قلوبهم مذاقات الوصل محل لذة

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة ج٤: ٢٩٥.

النعيم الدنيوي والأخروي.

ونقـــول من شواهد عبارات النووي وابن مسروق وابن عطاء وابن الصائغ إنهم لم ينظروا حتى إلى الوصال أو التجلي أو الكشف أو القرب بل أعلنوا حبهم للـــــه سواء وصل أو فصل وكشف أو حجب وقرب أو أبعد فهم يحبونه على كـــل حـــال ويبذلون لـــه المهج والنفوس وكل شيء لذاته لا لشيء أبدا وراء ذلك[1] وبذا صارت المحبة عند هؤلاء إفراط الميل بلا نيل حسبما صرح الجنيد[2] وأضحى المحب لا يحب من مولاه إلا مولاه على حد تعبير البسطامي[3]. وهي محبة مستمرة في الدنيا والآخرة.

وقد أرجعوا تمسكهم بالحب الذاتي إلى ثلاثة أسباب:

أولها: أن كل شيء مبني على العوض ربما يذهب عند حصول الأجر أو يقل عند النوال وأما الذي لا ينبني على مقابل فهو دائم ومستمر وعليه الجنيد[4].

وثانيهما: أن البسطامي والمغربي والشبلي والرازي بينوا في أشعارهم ونثرهم أن لـــذة المحبة شغلتهم عن كل ما سواها من نعيم في العاجل والآجل ومن موارد ربانية[5]، فكم يتنعمون بلهيب الحب أكثر مما يتنعم أرباب المنفعة وطلابها، وهم في ضـــريم الشـــوق إلى محبوبهم أقوى سعادة وأشد نعيما من تلك التي يتمتع بها

---

(١) طبقات السلمى: ٣٨، ٥٧، ٣٩.
(٢) الرسالة القشيرية: ١٥٩.
(٣) مصارع العشاق: ٢٤٧.
(٤) الرسالة القشيرية: ١٥٩.
(٥) مصـــارع العشـــاق ٢٤٧، والتصـــوف الإسلامي زكي مبارك ج١: ٢٥٨ وطبقات السلمي: ١٦، ٥٧، ٦٤، ٧٦.

المترفون في الدنيا والآخرة، واستراحهم بملذات الحب وحلاوته تربو درجات ودرجات عن مراتب النعيم هنا وهنالك وأشعارهم في ذلك تجل عن الحصر في هذا المقام.

وثالثها: أن الواحد جل جلاله يحب وحدانية الذات توحيدا وعبادة وحبا وهو غيور لا يحب شريكا[1] ومع أنه يمن على العباد والمحبين بالأجر إلا أنه يفعل ذلك ليحثهم على العمل والميل ولتظهر صفة الرحيم المكافئ، وهو مع ذلك يمتدح الذين لا ينظرون إلى الأجور وإنما يتوجهون إليه وحده ابتغاء ذاته فيقول في الصلاة مثلا ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٰ﴾ [طه: ١٣] ويقول في الإنفاق ممتدحا حال المنفق لذاته ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان: ٨،٧].

واشترط النبي في الإيمان الكامل: «**أن يكون الله ورسوله أحب مما سواهما**» والسوى شامل لكل ما في الدنيا وما في الآخرة، ولا يخفى أن هذه المرتبة في الحب والإيمان فوق منزلة الإيمان الاصطلاحي التصديقي.

وبجانب هذا فإن الأحاديث جاءت تبين أن أحد السبعة الذين يظلهم الله بظله «**رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا**» وأن الله أدرج لمسلم زار أخا له في الله ملكا فقال له: «**طبت وطاب ممشاك**» وتنادي الملائكة على رءوس الأشهاد «**أين المتحابون في أين المتزاورون في أين المتجالسون في أظلهم بظلي يوم لا ظل إلا ظلي**».

---

(١) تاريخ بغداد ج٤: ٣٩١ والفتح الرباني ٢٢، ٢٣، ٦١، ٢٠٢ وفتوح الغيب ١٣٦-١٣٧.

صلة الحب بالمعرفة

كان يمكن أن نتحدث عن هذه النقطة أثناء حديثنا عن منازل المحبة وخصائصها ولكننا آثرنا أن نفردها بجزء خاص من الدراسة لاختلاف الآراء حولها اختلافا يحتاج إلى تمحيص وتفصيل، وذكرها في ثنايا غيرها يفقد ذلك الغير تسلسله ويضيع على القارئ فرصة التتبع خاصة وأن النقاش سيحتدم في كثير من المسائل.

وأيضا فإن بحث هذا الموضوع ليس تكرارا لشيء مما قلناه في نظرية المعرفة لأننا سنتقصر هنا على مسألة الصلة بين الحب والمعرفة وأيهما أسبق من الآخر أو أيهما ثمرة للآخر دون أن نخوض في أمور هي من صميم العلم المطلق، ونلاحظ أن الصوفية وهم يتحدثون عن تلك الصلة قد انقسموا إلى قسمين: الفريق الأول يرى أن المعرفة أسبق والثاني يرى العكس وهاكم وجهة نظر كل ثم حكمنا في المسألة وبيان القول الفصل فيها.

الفريق الأول: المعرفة أسبق من الحب

لم يغفل الزهاد هذه النقطة وإنما عرضوا لها في جدية وموضوعية حيث اتفق الحسن البصري وهرم بن حيان على أسبقية المعرفة على الحب واعتباره ثمرة من ثمارها، وتناولت الصوفية المسألة بصورة أوسع فقال أبو يزيد البسطامي: كمال العارف احتراقه بحبه لربه[1] أو تعصب الغزالي لتلك الفكرة فقرر أن المحبة ميراث المعرفة الناشئة عن التعقل والتفكر وميراث المعرفة الناشئة عن الذكر والأنس والتصفية وقطع العلائق والحجب فهي إذا من وجهة نظره التي رددها كثيرا تابعة للمعرفة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها، ومتى ما حصلت هذه

(١) مناقب أبي يزيد: ٨١.

المعـــرفة تتبعها المحبة ضرورة، وهي ميراث التوحيد والمعرفة فلن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس به إلا من طال ذكره لـــه، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بـــدوام الفكر والمحبة تتبع تلك المعرفة، وبعبارة أخرى: اللذة تتبع المحبة والمحبة تتبع المعرفة، فالمعرفة بداية والمحبة وسط واللذة وراء المحبة وتبع لها[1].

وعـــلى هذا سار ابن قيس الحراني وابن قيم الجوزية[2] ونظرا لكثرة القائلين بسبق المعرفة فقد قال القشيري: والأكثرون يقدمون المعرفة على المحبة[3].

الفريق الثاني: الحب أسبق من المعرفة

يعتـــبر إبراهـــيم بن أدهم من أسبق القائلين بسبق الحب واعتبار النظر بنور اللـــــه ورث المحبة وتابعه على ذلك ابن عطاء الآدمي فقال حين سئل عن المحبة: أغصـــان تغرس في القلب فتثمر على قدر العقول، وبه تمسك سحنون المحب[4]، وهكذا يصر أنصار هذا الرأي على أن المعرفة ذوق وحلاوة وثمرة من ثمار الحب.

مناقشة وحكم:

هـــذه هـــي وجهات النظر المتعلقة بهذا الموضوع والتي اختلفت كما رأينا اختلافا ظاهرا، ولقد تبعه اختلاف في آراء الباحثين والدارسين. وأقف وقفات:

أولا: مـــع الدكتور محمد مصطفى حلمي الذي صرح بأن الأذواق متشابهة ومـــتداخلة فالذي يتحدث عن الحب ويصف حال المحبين لا يخرج عن موضوع المعـــرفة وحـــال العـــارف، والعكس صحيح، والذي يصف الفناء ودرجاته إنما

---

(١) الغزالي: الإحياء ج٤: ٢٥٤، ٢٧٢، ٣١٤ وروضة الطالبين: ١٤٦ منهاج العابدين ٨٢.
(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج٣: ٢٢٤.
(٣) الرسالة: ١٦٠: ١٥٨.
(٤) نفسه.

يتحدث حقيقة عن الحب والمعرفة ومراتبهما، فنحن إذا أمام ألفاظ متعددة تصور موضـــوعا واحدا وتعبر عن حقيقة واحدة وتحلل حالة نفسية واحدة، وهنا مبدأ عام مشترك يجمعها كلها[1].

ومـــع أنـــني أوافقـــه على وجود شبه بين المذاقات المتعددة سواء في السبيل الموصل إليها أم في الوصف النفسي والحال الذي يكون عليه الصوفي عندما أقول عـــارف أو فـــان أو محـــب أم في المحل الجامع لهذه الأحوال وهو النفس، إذ من المعروف أنها محل التحقق بالمقامات ومحل توارد المواهب.

ومع تسليمنا بهذا إلا أنه يجب العلم أنها ذات علاقات وصلات متعددة ولها باعتـــبار كـــل مقام شعور خاص يليق بها وباعتبار كل حال ذوق رقيق يتناسب معها ووشائج دقيقة تتصل بها، فإذا قلنا عارف فللإدراك ولليقين وللعلم الحاصل، وإن قلنا: فان فللتسليم والرضا والتوكل، وإن قلنا: محب فللميل والشوق والأنس والشعور بالود.

ونظـــرا لهذه الاعتبارات الخاصة فقد وجد لكل حال لغة ولفظ ووضع لـــه مصطلح، ولولا فروق المعاني ما وضعت الألفاظ الكثيرة، وجهل الفروق المعنوية لا يبرر القول بترادف الألفاظ بل يفضحه، والدليل على صحة ما نقول أن المعرفة تتنوع وسائلها والمحبة تتنوع مراحلها.

وقـــد يدلـــل الإنســـان عـــلى شيء يحبه، وقد يبذل جهدا في التجارب والملاحظات على كثير من العناصر دون أن تنشأ علاقة بين الذات وهذه الأشياء، وكثير من الفلاسفة دللوا على مبدأ أول و لم تسطع عباراتهم بأضواء الحب ولمعانه،

---

(١) د/محمد مصطفى: ابن الفارض والحب الإلهي ٢٣٥-٢٣٦.

ومعظم المتكلمين قضوا حياتهم في الجدل حول إثبات الذات ومع ذلك أنكروا الحب كعاطفة في العبد وكصفة في الرب، والمعرفة تتعلق بدنايا الأمور وصغيرها وكبيرها وعظيمها.

المحبة لا تتعلق إلا بأرق المشاعر الإنسانية ولا تتجه إلى الموضوعات ذات الجمال والحسن، وآلات المعرفة تسمى بالمدارك ومناطق الحب تتسمى بالمشاعر والعواطف والوجدان، وأيضا فإن قول الدكتور حلمي إن السبيل للمعرفة والمحبة والفناء واحد ليس بصحيح لأن طريق المعرفة منه كسبي ومنه ذوقي والذوقي إما إشراقي وإما شرعي وطريق المحبة هو الاتباع والاقتداء كما قال أبو العباس بن مسروق: شجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة وشجرة المحبة تسقى بماء الاتفاق والمراقبة والإيثار[1].

وغاية المعرفة قد تكون عرفانية مجردة وغاية الحب إرضاء المحبوب بالعمل والجهد، ومن هنا ولهذه الفروق كان لكل حال لغته ومعناه.

ثانيا: وأما الدكتور إبراهيم بسيوني فيقول: إن الحب يقترن بالمعرفة نتيجة لانعدام الفرق النوعي بينهما بحيث يمكن أن تحل إحداها محل الآخرة دون أن يحدث خطر كبير من الأحوال كالفناء والشهود عاد فأثبت فروقا بينهما في الدرجة لا في النوع استنادا إلى أقوال الصوفية الدالة على وجود تلكم المميزات أو الفروق، ثم قام بوضع ترتيب خاص فجعل المحبة أولا ثم الفناء ثانيا ثم المعرفة ثالثا لأن المعرفة تاج الجهود وقمة المذاقات بل هي المحصول النهائي لما يقابل علوم البشر العادية إذ يغلب عليها الصحو الثاني[2].

---

(١) طبقات السلمى: ٥٧.

(٢) د./ بسيوني: نشأة التصوف ١٧٠-١٦٩.

وبـــذا ينتهي إلى سبق المحبة عن الفناء والمعرفة موافقا به أنصار الرأي الثاني، ولنا على موقفه ملاحظات:

مـــنها أنـــه ألغى الفرق النوعي وأثبت الفرق الدرجي فقط مع أنه قد توجد الفروق النوعية بين المعرفة الحسية والحب الروحي بالإضافة إلى ما قلناه من فروق منذ قريب. ولو أراد المعرفة الذوقية مع الحب لكان عليه أن يبين نوع كل منهما وما هما الوجهان اللذان يلتقيان في النوع ويختلفان في الدرجة؟

ومـــنها أنه لم يعر أقوال الصوفية اهتماما سواء فيما يتعلق بهاتيك الفروق أم فـــيما يتعلق بصلة الحب بالمعرفة حيث نراه ساق كثيرا من الأقوال المؤيدة لوجهة الـــنظر الأولى والرامية إلى سبق المعرفة ثم خالفها متبعا في ذلك عبارة «أريجين» الذي قال فيها: إن الفكرة تأتي في ختام الكشف الصوفي لا في بدايته[1]، فسار مع الفيلسوف اليوناني لا مع الصوفية الذين تحدث عنهم وساق عباراتهم، وكان يمكن أن يقـــبل هذا العدول لو أنه بره من واقع أقوال الصوفية وفهمه الخاص فيها أما وإنـــه لا يقدم سندا على رأيه إلا من خارج الدائرة الروحية الإسلامية فهذا ما لا يصور حقيقة الأمر الذي عليه رجال الطريق.

ثالثا: وبعد هذا فإن الحكم على المسألة يجب أن يبنى على أن الاختلاف ليس قائما على وحدة الجهة بل هي منفكة حيث يتضح من أقوال الفريق الأول الذي رأى ســـبق المعرفة على المحبة أنهم يقصدون بتلك المعرفة هذا النوع الكسبي القائم على الحس والعقل ومداركها.

وهـــو مذهب معقول ومنطقي لأننا لا نحب حقا إلا من نعرفه ويستحيل أن

---

(١) طبقات السلمي: ٥٧.

نتعاطف مع ما نجهله كلية فضلا عن حبه، والمحبة المترتبة على المعرفة الكسبية هي المحبة المرتبطة بالنفس أو بالعقل أو بالقلب أي المحبة في المنازل الكسبية القائمة على الجهد والعمل المنبعثة من الإحسان والنعم، وفي رأيي أن الغزالي قد خالف أكثرية الصوفية حين جعل المحبة ثمرة المعرفة مطلقا سواء أكانت مبنية على الإدراك الكسبي أم الذوقي وقد جانبه الصواب في هذا نظرا لأن شركاءه في سبق المعرفة لم يريدوا بها الكسبية فقط، في مقابل الفريق الثاني الذي رأى أن المعرفة الكسبية عندما تثمر محبة شبيهة بها لا تستطيع أن تقذف هذا الحب إلى حب خالص أو صاف إلا إذا انتقل المحب من جمود المعرفة العقلية وخلوها من نعت الحق نعتا يرقرق المحبة إلى التسليم بالشرع والرضا به والعمل بأوامره.

وعندها ترقى المحبة وتتعلق بالروح فإذا كانت كذلك أثمرت معرفة جديدة من نوع فريد وهي المعرفة الكشفية أو الوهبية فمن وقف مع عقله في حال حبه لم يتمكن أن يقبل من سلطان الحب إلا ما يقتضيه دليله النظري، ومن وقف مع قبول عقله لا مع نظر عقله فقبل من الحب ما وصف به نفسه تحكم فيه سلطان الحب بحب ما قبله، فحكم الحب في العقل الناظر والقابل ليس على السواء[1]، على حد التعبير الدقيق لابن عربي.

وبعبارة أخرى فإنه يجب أن نفرق بين السالك المجذوب وبين المتدارك. أما أهل الجذب فإن المحبة عندهم قرينة المعرفة والمعرفة تعانق المحبة، بخلاف أهل التدارك والسلوك فإن المعارف الأولى إذا أصبحت أثمرت حبا وهذا الحب لا يمكن أن يعتد به إلا إذا دفع صاحبه إلى الطاعة والإخلاص، وبالمحبة والصدق والطاعة والعبادة تصفوا النفس فتستأهل الواردات وتأتيها الفراسة والإلهام والمكاشفة،

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٢: ٤٧٣، ٤٧٦.

فالطريق إذا من ثلاثة مراحل الأولى المعرفة العامة والثانية المحبة والثالثة المعرفة الخاصة.

والذين حكموا بأن المعرفة سابقة نظروا إلى بداية الطريق، ومن قال: إن المحبة سابقة نظر إليها باعتبارها أساسا للمعرفة الخاصة، والذين قالوا بعدم التفريق بين الحب والمعرفة نظروا إلى المرحلة الغائية التي تلتقي فيها المحبة الخالصة مع المعرفة الذوقية، وسندنا في هذا الفهم ما ذكره أبو طالب المكي حين فرق بين المعرفة العامة وجعلها سابقة للمحبة العامة، وبين المعرفة الخاصة وجعلها مرادفة للمحبة الخالصة التي هي مزيد الإيمان[1] وما قاله ابن تيمية في تفسير الحديث «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**» حيث قرر أن المذاق والحلاوة والوجد لا تتحقق اللذة بها إلا بالإدراك الناشئ عن الحب ومعنى هذا أن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فالمحبة تولد إدراكا خاصا والإدراك يولد لذة، ولا يجوز أن تكون اللذة نفس الإدراك وإنما هي تابعة له[2].

هذا فإنه ليس حتما إذا ما وجدت المعرفة وجدت المحبة لأن الأولى قد تتحقق ولا توجد الثانية كحال أهل الكتاب في قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وعرف كفار قريش أن الله خالق السماوات والأرض ومع ذلك لم يوحدوه ولم يؤمنوا برسوله، وعرفوا صدق النبي وقالوا: ما جربنا عليك كذبا، ومع ذلك لم يؤمنوا بنبوته، وقد توجد المعرفة ويحدث الإيمان ولا تتعمق المحبة كحال جفاة الأعراب مثل حال من قال للنبي: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل،

---

(١) المكي: قوت القلوب ج٢: ٥٠-٥٢، ٦٣-٦٤.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج٢: ٣٩٣.

وكحال المؤلفة قلوبهم الذين قال فيهم النبي: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه**».

وقد تأتي المحبة رديفة الإيمان المبني على المعرفة العامة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وأخيرا تأتي المعرفة الذوقية بعد الإيمان وبعد المحبة كما في حال حارثة وكما في حال عمر. وبذا قال القاضي عياض وأبو سليمان الخطابي[١].

الكتمان والإسرار في المحبة

أفضل العبادات ما كان خالصا لوجه الله وما كان سرا بين العبد وربه، والحب روح العبادة وعاطفتها فهو أجدر بالإخلاص والسرية وأبعد عن الافتضاح خشية الانزلاق إلى الدعوى، وهذا هو السر في أن الله قلل في القرآن من ذكر محبة العبيد له تحبيبا في الكتمان والإسرار بينما أكثر سبحانه من الآيات التي تتحدث عن حبه للعبيد، والعلة واضحة وهي أن الله حق وكلامه حق أبدا وليس كذلك العبيد كما أن الرسول رغم أنه الحبيب والمحب إلا أنه لم يتحدث عن حبه إلا قليلا ، وتعتبر أحاديثه في هذا الباب إذا قيست بأحاديث الخوف والخشية والرهبة جد معدودة، وأيضا فإن المحبين من أصحاب رسول الله ﷺ لم يذكروا عن حبهم إلا عبارات وجيزة ومقتضبة إخلاصا منهم وسترا لحالهم، فلا غرابة والحال كذلك أن نجد رجال الطريق يحثون على الإضمار وكتم الحب عن الغير حتى عن أبناء الجنس من السالكين عن الطريق والمحبين، ويدعون إلى ترك التظاهر والإعلان عنها فيقول ذو النون:

حبك قد أرقني ... وزاد قلبي سقما
كتمته في القلب وإلا ... حشاء حتى انكتما[٢]

---

(١) صحيح مسلم شرح النووي ج١: ٢١٧ ج٢ ٢١٩.
(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء ج٩: ٢٨٣.

وأنشدت جارية:

وكتمت الوشاة ما بي من الوجد ... ومن لوعتي وحر احتراقي

أنا أفنى بكم وتبلى عظامي ... ورسيس الغرام في القلب باقي[1]

ويقول أبو العباس بن العريف:

سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم ... أدنى إلى النفس من وهمي ومن نفسي

ما زلت مذ سكنوا قلبي أصون لهم ... لحظي وسمعي ونطقي إذ هم أنسي

لأغض إلى حشري بحبهم ... ولا أكون كمن قد خانهم ونسي[2]

دواعي الكتمان: ترجع الأسباب الرئيسية للإسرار إلى جوانب ثلاثة:

أولها: يتصل بطبيعة المحبة ورقتها ولطائفتها، تلك الرقة التي لا تفي العبارات بها ولا تستطيع تصويرها على وجه الحقيقة خصوصا إذا ما كان المحبوب غير محسوس، قال ذو النون: قابلت رجلا أسود في الطواف فسمعته يقول: أنت أنت ولا يزيد فقلت له يا عبد الله أي شيء عنيت فأنشأ يردد:

بين المحبين سر ليس يفشيه ... خط ولا قلم عنه فيحكيه

نار يقابلها أنس يمازجه ... نور يخبره عن بعض ما فيه

شوقى إليه ولا أبغى به بدلا ... هذه سرائر كتمان تناجيه[3]

فقد بين أن المحبة سر لطيف مازجه نور وأنس، ومع أنها أضرمت في قلبه النار إلا أنه قادر على كتمان شوقه وحبه.

---

(١) روض الرياحين: ٧٥، ١٥٩، ١٩٥.

(٢) نفسه

(٣) روض الرياحين: ٧٥، ١٥٩، ١٩٥.

وقال آخر معبرا عن شفافية الحب

ألم بنا أمر يجل عن الوصف ... أرق من المعنى وأخفى من اللطف
تمازجه الأرواح وهي لطائف ... إذن هو روح الروح والروح كالظرف[1]

فليت الود معنى إذا لوجدنا له لفظا يناسبه، أو لطف فنجد له إشارة تتلاءم مع لطفه، وليته متعلق بالنفس أو الروح فقط بل هو أسمي من هذا وأرق ولذا جل عن الوصف ودق عن العبارة، وقد رأينا كيف اعتصر هذا الشاعر الألفاظ والمعاني والمشاعر ليحاول أن يبين أنها وراء كل ما أمكن تصوره من معنى أو لطف أو روح. وبالتالي فالكتمان أولى وأنسب لعاطفة على هذا النحو من الخفاء والشفافية والإضمار أليق بخصائصها الذاتية.

وثانيهما: يرتبط بطبيعة الذات المحبة ويتوقف على قدرة الصوفي وتمرنه في مجال ضبط النفس وعلى مدى خبرته في التجربة السلوكية التي يحياها، فكلما تجاوز البدايات ومواطن القلق والاضطراب والتلون ودخل في ثبات النهايات والطمأنينة كان أقدر على زم عواطفه وشعوره وعلى التغلب عند احتدام الوجد في داخله وكان أكثر ثباتا وطمأنينة، ولقد سئل الجنيد عن سكونه وقلة اضطرابه فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2][النمل: ٨٨].

وقال أبو نصر السراج: ألا ترى أحدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق وقد يكون هناك من هو أقوى منه ساكنا في وجده لا يظهر منه شيء[3].

---

(١) مناقب أبي يزيد ١٩.
(٢) الطوسى: اللمع ١٢٨، ٣٧٥.
(٣) الطوسي: اللمع ١٢٨، ٣٧٥.

ثالثها: وأما الجانب الثالث من أسباب الإسرار فيرى أن الكتمان أليق لمراعاة الآداب المتصلة بالعلاقة بين العبد وربه كالصدق في الحب، وقد اهتم به الشلبي فقال:

وإني وإياك لفي الحب صادق نموت بما نهوى جميعا ولا نبدي[1]

وستر المحبة من علامات الإخلاص فيها، والحب من أعمال القلوب فالإخفاء له أولى خشية الاستبدال أو المكر أو الاستدراج أو الشهرة، ولأن إخفاءه عامل من عوامل اتقاده واشتعاله، هذا من ناحية الآداب المرعية في طرف العبد.

وأما الآداب الخاصة بالعلاقة في جانب الذات الإلهية فإن الكتمان من حسن الأدب مع المحبوب إجلالا له وهيبة وتعزيزا وتعظيما لذاته وحياء منه، لأنه سبحانه غيور وغيرته على نفسه وعلى محبته أشد، وهذه الأسباب مجتمعة هي ما حدت بالنبي ﷺ وصحابته أن يقللوا من الحديث عن المحبة وإن دعا الإسلام إليها حالا وشعورا واستحبها عاطفة مكنونة لا ادعاء فيها ولا مقالا.

الإظهار والإفصاح

ومع أن النبي ﷺ قلل من الحديث عن المحبة إلا أنه أخبر أنه اتخذ الله خليلا وحدثنا عن حب الله لعبيده وحب بعض العبيد لله وحدد بعض المحبوبين والمحبين وقبل قول أحدهم بعدما سأله عن الساعة فقال له النبي:«**ما أعددت لها؟**» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله» وقبل إخبار عمر له أنه يحبه واستراح حينما علم أن قلب امرأة أبي سفيان قد شفي وأحبته ﷺ وكان يستبشر بعبارات الحب على اختلاف علاقاتها وهي تلقي من الصادقين، مما يجعلنا نقول: إن المحبة كبقية العبادات الظاهرة والباطنة وسرها

---

(١) طبقات السلمي: ٨٤.

أعلى من جهرها ولا بأس من إظهارها شريطة أن يخلو الإعلان من الدعوى والرياء والشهرة.

أسباب الإعلان عن المحبة

ينحصر دواعي الإظهار في ذات المحب نفسه وفي الغرض من وراء الحديث عن محبته، ونستطيع أن نجمعها في سببين عامين:

أولهما قد يبذل المحب جهدا أكبر في الكتمان ولكنه في ساعات الهياج الشعوري واحتدم العاطفة وفورة الحب ربما تصدر منه عبارات تنم عن حاله وتدل على حبه، وقد ينفد صبره ويفل عزمه فيفصح، وقد يقوى الشراب وتحل الثمالة وينتابه السكر فيقول ما كان يكتمه ويبدي ما كان يسره.

وبما أن الصوفي في أدواره الأولى خاصة دائم التقلب والاضطراب والتلون نراه مرة في ثبات ثم مرة أخرى في انزعاج فمن الجائز أن تصدر منه ألفاظ الحب في لحظات الانزعاج، ومن هنا يرى أبو علي الكاتب أن روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها[1] ويقول جعفر الخلدي: المحب يجتهد في كتمان حبه وتأبى المحبة إلا الاشتهار وكل شيء ينم عن الحب حتى يظهره[2]، ولو أن العبيد كانوا في درجة واحدة من القوة والثبات أو لو أن المحبة كانت كبقية الأسرار العادية والخامدة التي لا نشاط لها في داخل الإنسان لجاز أن يصبر المحب على الكتمان وأن تقبل المحبة الإخفاء طويلا، ولكن لما كان المحبون منهم القوى ومنهم الضعيف وكانت المحبة ذات حركة نشطة في إحساس ومشاعر المحب عجز هذا الضعيف عن أن يقاوم هذه الأفاعيل

---

(١) طبقات السلمى ٩٤، ١٠٧.

(٢) نفسه ٩٤، ١٠٧.

المحتدمة في جوانيته وبدت منه أقوال وحركات تبدي ما استتر وتكشف ما اختفى.

وأما أنهم حاولوا الكتمان أولا ودعوا إليه ثم لما لم يطيقوا من فرط الجوى صاحوا وتنادوا بالحب فكحال ذي النون حين قال:

تحمل قلبي فيك ما لا أبثه وإن طال سقمي فيك أو طال
وبين ضلوعي منك ما لك قد بدا ولم يبد بادية لأهل ولا جار
وبي منك في الأحشاء داء مخامر فقد هدمني الركن وانبث إسراري[1]

فما زال يتحمل أوضار الكتمان وأسقامه ولا يبدي الحب لأهل ولا لجار حتى تحول الإسرار إلى داء حطم منه قواه وهد ركنه فقفزت الأسرار من بين الحشا وعلى هذا سارت جارية معاصرة للسري السقطي، وتمسك الشبلي حيث لزما صون الحب والشوق في الخاطر وكتماه في الكبد والسويداء ونبها على أن من لم يصن سر المولى لا يؤمن على الأسرار ومع ذلك عادت الجارية فأفصحت عن حبها وفضت السر لما أعياها الصبر ونفدت الحيلة، وعاد الشبلي يردد أن الحب ما دام مكتوما فعلى خطر وأطيب الحب ما نم الحديث عنه كالنار لا يمكن أن تؤتي نفعها وهي في الحجر[2].

وأما الذين جاءت أقوالهم وأشعارهم تتحدث عن سورة الحب وطغيانه ولظاه وكيف أنها كانت السبب الرئيسي في عدم التصبر على الكتمان فهم كثير منهم مالك بن دينار وشيبان الراعي وجارية أمام الجنيد وأخرى أمام ابن المهلب وأمام

---

(١) نفسه: ١١.

(٢) انظر الأبيات لكل من الجارية والشبلي في روض الرياحين ٧٦، ٧٧ وفي نشأة التصوف د/إبراهيم بسيوني ٢٣٣.

إبراهيم الخواص ومجنونة رابعة بالماريستان وأحمد بن محمد الغزالي[1].

ثانيهما: وإذا كان الإفصاح أحيانا ينم عن ضعف أو غلبة الحب أو فقدان الصبر والتصبر أو السكر من كثرة الشراب فإن الإعلان عن الحب بعبارات قد يكون متعمدا في حال الثبات والطمأنينة والقدرة على الكتمان، ويقصد بالإفصاح في هذه الأحوال تربية المريدين وتشبيب عواطفهم وإزكاءها أو تعليمهم وسائل الحب وعلاماته ومراحله ليستفيدوا بذلك في السلوك.

ومثل هذا إنما يصدر من أهل التمكين يقول ابن عطاء الله السكندري: عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد فالأول حال السالكين والثاني حال أرباب المكنة والمحققين[2]، بشرط أن يكون القائل مأذونا له في التربية والتعليم حتى لا تتلبد عبارته وتحجب من النور.

مظاهر الإفصاح

والإظهار قد يكون بالعبارة كما رأينا وقد يكون بما يبدو على المحب من أثار الحب وتوجعه وبما يصدر عنه من حركات وانفعالات، وأبرز هذه المظاهر ما نراه من دعوة عاشقة إلى التهتك أمام ذي النون قائلة:

تهتك ولا تخش في الحب عارا ... وإياك إياك تبدي استتارا
وبادر إلى الباب مع فتية ... لهم في الظلام عيون سهارى[3]

وقد يكون التعبير بالدموع وهو أكثرها وأشدها لأن العين أول أجزاء الوجه

---

(١) انظر أشعارهم على التوالي والترتيب أعلاه في: روض الرياحين: ٥٠ ونفسه ٨٣، نفسه ٤١، نفسه ٥٠، نفسه ٨٣ ووفيات الأعيان ج١، ١٨١ وروض الرياحين: ٧٦- ٧٧.
(٢) ابن عطاء الله: الحكم شرح النفري والشرقاوي ج٢: ١٨، ١٦، ١٥.
(٣) التصوف الإسلامي د/زكي مبارك ج١: ٢٨٥.

إعلانا وإفصاحا فالصب تفضحه عيونه فقد قيل:

دمـــوع الفـــتى عمـــا يجن تترجم وأنفاســـه يبدين ما القلب يكتم

وقال سحنون:

أمســـى نجـــدي للدمـــوع رسوم أســـفا علـــيك وفي الفؤاد كلوم

والصـــبر يحسن في المصائب كلها إلا علـــيك فإنـــه مذمـــوم[1]

وكانـــت تلـــك الوسيلة هي أسلوب التعبير عند الشبلي والعلاء بن زياد[2] وغيرهمـــا، وقـــد يكون الإظهار بالسقم الناشيء من كثرة الجوى وشدة المجاهدة وطول السهر لإرضاء المحبوب كما قال السري السقطي:

محـــب اللـــه في الدنـــيا سقيم تطـــاول ســـقمه فـــداوه داه

هـــذا علاوة على النفس الحار والشهيق والزفير وتنهدات الحزين وتوجعات المشتاق التي يطلقها إفصاحا عما يكنه في فؤاده وقلبه.

وفي النهاية بعد كل هذه الجوانب التي تعرضنا لها في الحديث عن المحبة ندرك أن الفكـــرة لاقت كثيرا من التفصيل والتحليل على أيدي الصوفية وأضفوا عليها مـــن شـــعورهم ونتاج عقولهم وأذواقهم ما لو جمعناه على هذا النحو لكانت به نظرية ذوقية عاطفية علمية، ولم تكن كذلك في عصر السلف كما قلنا في البداية.

---

(١) د/إبراهيم بسيوني نشأة التصوف: ٢٣٠- ٢٣١.

(٢) طبقات السلمي ٧٧ وروض الرياحين: ١٢٢.